مملكة الظلام

أو

حياة الأرضة

تأليف مترلنك

تعريب الدكتور نقولا فياض

صاحب نشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٧

مملكة الظلام

أو

حياة الأرضة



تأليف مترلنك

تعريب الدكتور نقولا فياض

عنيت بنشره

إدارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٧

كلمة للمعرب

« لا يدخله الا العالم بالهندسة » هذا ما كتبه قديماً افلاطون على جبهة منزله ويمكنني أن أصدّر به هذا الكتاب مع بعض التحريف فأقول : « لا يقرأ هذه الصفحات الا العالم بالحشرات »

ولكن موريس مترلنك مؤلف الكتاب لم يترك سبيلاً الى ذلك فهو من الذين لا يكتفون بدرس حياة الحشرات وطبائعها بل يفتح لها طريقاً الى قلبه وعواطفه فيتأثر بها ويستمد الوحي منها فتجيء مباحثه العلمية من وراء الغاية إذ يلبسها ثوباً جميلاً من الخيال ويفرغ الحقيقة في قالب شعري ساحر بحيث يتناولها ذهن القارىء أيّاً كان دون كد ولا عناء

وقد سبق فكتب حياة النحل فأفلح في عرض نتائج اختباره

الطويل وبحثه الدقيق عرضاً واضحاً في شكل جذاب لا ملل من ورائه ولا تعقد فيه

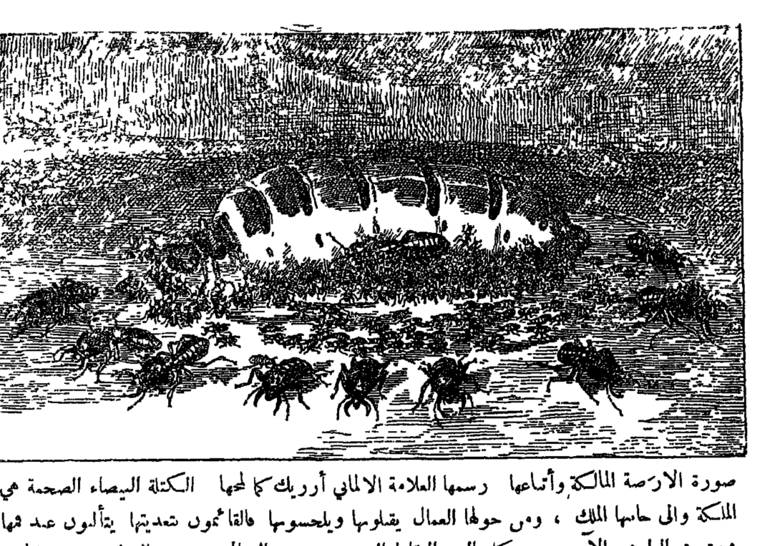
وقد يخيل للقارىء ان الكتابة على هذا النمط والاسلوب قد تذهب بصاحبه أحياناً الى أبعد مما يريد فيحرف عن جادة الصدق في الروايه والامانة في النقل وتضيع دقة البحث في سبيل زخرفة الكلام وتزويقه . على أن الواقع خلاف ذلك كما نبه اليه المؤلف فانه حاذر الاندفاع في هذا السبيل ولم يقدم على ذكر شيء الا بعد تمحيصه ولا سيما لان الموضوع يقتضي التمحيص فان العالم الجديد الذي يدعونا الى زيارته لا يزال محاطاً بالاسرار وقد يكفي اليسير من الاغراق في الخيال أو النقص في التعبير ليخلق الاضطراب والبلبلة ويزعزع الثقة ويقلل الفائدة

وقد جعل هذا الكتاب تكملة لحياة النحل أو ذيلا له على ما بين الاثنين من البون الشاسع في الوصف والبيئة فكأنه جمع بين النهار والليل والسماء والجحيم فهي حياة النحل كما يقول (على شرط ألا نتعمق كثيراً لأن للقفير أيضاً فواجع) لا ترى الا ربيعاً زاهراً وندى عاطراً وأجنحة ترف ونسيما يهب وأهازيج لا تكف وآفاقا لا تغشى صفاءها كدورة وسعادة ما وراءها سعادة وهنا لا نجد سوى الظلام والنحل والقذارة ولا تستنشق غير هواء السجون والمنفى والقبور. على أن وراء هذا الشقاء كله مثلا أعلى من التضحية

تتحلى فيه السليقة في أعظم وأكمل مظاهرها . وهذا هو ما يقرب
وجه الشبه بيننا وبين هذه الضحايا ويجعل من تلك الحشرات
المسكينة العائشة في ظلام أبدي مثالا واضحاً لحياة الانسان على
الارض

وقد أجزت لنفسي بعض التصرف في نقله فاختصرت باب
التاريخ وحذفت كلمات وأسماء لا تهم القارىء ولا تؤثر في جوهر
الكتاب . والله من وراء كل علم

مدخل



صورة الارضة المالكة وأتباعها رسمها العلامة الالماني أرريك كما لحها الكتلة البيضاء الضخمة هي الملكة والى جانبها الملك ، ومن حولها العمال يقلبونها ويلحسونها فالقائمون تغذيتها يتألبون عند فمها ويبقى في الطرف الآخر من وكل اليهم التقاط البيض وبين العمال جند من البوليس صغير الحجم وفي الصف الاول في شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراستها ضد هجمات عدو مفاجيء

— ١ —

الأَرَضة[١] أو النمل الاعمى ويقال له الابيض وما هو بالابيض يرجع تاريخه الى مائة مليون سنة قبل الانسان على زعم علما الحشرات والجيولوجيا أي طبقات الارض . غير انه من الصعب تحقيق هـذا الزعم والاتيان بأدلة ناصعة على صحته على كل حال فان هـذه الحضارة التي تعد أرقى من حضارة النمل والنحل هي بلا ريب قديمة العهد حداً أي أتى عليها بضعة ملايين من السنين

ولو تقصينا المكتوب عنها لما وجدناه شيئاً بالنسبة الى ما قيل وكتب عن النحلة والنملة مع انك لا ترى على هـذه البسيطة كائناً أقرب الينا وأبعد عنا في آن واحد من هـذه الحشرات التي تجمع

---

(١) الأَرَضة دودة بيضاء تبني على نفسها بيتاً مستطيلا ولها شفران تقرض بهما الخشب والاجر والحجارة جمعها أرَض وهي هنا ترجمة كلمة Termite الافرنسية لا كلمة Mite أي السوسة أو العثة التي تلحس الصوف والثياب

بانظمة سياسية واقتصاديه واجتماعيه كأنها عالم انساني يؤاخيها في آلامها وشقائنا

وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحلمون شكلا جديداً للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور الى حلو مثال خاص للاجيال الآتية في نظامها وأحكامها فما عليهم الا أن يقتربوا من هـذه المملكه الهائله فيجدوا من الغرابه مثل ما في أحلامهم وأغرب مما تصوره في عطارد والمريخ والزهرة

— ٢ —

أول من اهتم بدرس هذه الحشرات هو كونج Koenig الذي قضى زمناً طويلا في الهند ومات سنة ١٧٨٥ ثم هنري سميثمان Smeathmann وهرمن هاجن Hagen أما سميثمان فيحق أن نسميه أبا لهذا التاريخ وكتابه عن بعض الأرض الافريقي المطبوع سنة ١٧٨١ مشهور بدقة مباحثه وفيه من المشاهدات والشروح ما كان حجة لكل من كتب بعده في هذا الموضوع . وقد أيد أقواله كل من عقبه من الباحثين مثل هافيلند Haviland وسافاج Savage . وأما هرمن هاجن فقد نشر في برلين سنه ١٨٥٥ كتاباً مطولا لم يدع زيادة لمستزيد وفيه شرح واف وانتقاد دقيق لكل ما ذكره سواه عن أرض آسيا وافريقيا وأميركا واوستراليا

وبين من كتبوا حديثاً في هذا الشأن نذكر كراسي Grassi

وسانديا Sandias اللذين اكتشفا الحلميات في معا الأرَضة وغيرهما متل لسس Lespes ومولر Muller وفروحات Frogat وهاك Hagh الخ . . الذين تعقموا في درس حشرات أميركاوافريقية واوستراليا والكونغو

— ٣ —

ليس الأرَض أو النمل الاعمى من طائفة النمل أو النحل وهي ما يسمونه العشائية الاجنحة Hyménoptere ولا يزال العلماء مختلفين في نسبه على أن بعضهم يضعه في صف المستقيمة الاجنحة Orthoptère من رتبة القارضة أو الحراطة Corrodant

وهو يقيم في البلاد الحارة وتسميته بالابيض ليست صحيحة بل هو أعبس[1] ويشبه على التقريب لون الارض التي يسكنها

وهو يتراوح بين ٣ و١٠ ملمترات طولا وله بطن مستطيل مخطط عرضاً

وقد بخلت عليه الطبيعة بما يلزم من السلاح في ميدان التنازع فليس له ابرة النحل ولا درع النملة عدوه الالد . والغالب أن

(١) الاعبس من العبس وهو بياض فيه كدرة رماد

يكون خلواً من الاجنحة فاذا قدّرت له فلكي تسوقه الى الهلاك كما ترى

وهو متثاقل بطيء الحركة لا يستطيع الهرب من الخطر ولا سبيل له الى الدفاع عن نفسه ضد هجمات الطير والحشرات التي تهوى لحمه اللذيذ وتشتاقه

وانك لا تجد في عالم الاحياء مثيلا له في جمعه للاضداد فهو لا يستطيع البقاء في غير الاقاليم الحارة ويموت اذا أصابته أشعة الشمس

وحاجته شديدة الى الرطوبة ولا يمنعه ذلك من الاقامة في المعاطش والعفير ثلاثة أرباع السنة [1]

وبالجملة فقد جرت الطبيعة معه على سنتها مع الانسان فكانت ظالمة له مستهزئة به متقلبة معه خائنة لعهوده معاكسة لاعماله

غير انه عرف اكثر من الانسان أن يستفيد من الحالة التي وجد فيها فأجاد وأبدع في تصريف تلك القوة الخفيــة التي تدعى سليقة أو غريزة ولا ندري لماذا نسميها في الانسان ذكاء

هذه القوة هدته سبيل الخير والدفاع فعرف أن يلبس لكل حال لبوسها وأن يستنبط سلاحاً يحمي به نفسه ووسائل للدفاع

(١) المعاطش الاراضي التي لا ماء فيها واحدتها معطشة العفير الارض التي لم يسقها المطر

يدرأ بها خطر العدو المهاجم وأن يضع نظاماً لحياته في الغذاء والمسكن والتناسل فيحفظ في مدنه الدرجة اللازمة من حرارة أو رطوبة ويضمن المستقبل ويتكاثر ما شاء التكاثر حتى يصير شيئاً فشيئاً ارسخ قاعدة وأثبت قدماً وأشد خطراً من كل سكان هذه الارض وفاتحيها

من أجل هذا لم أر من العبث الاهتمام حيناً بدرس هذه الحشرة العجيبة والكريهة معاً التي عرفت أن ترتفع من هوة شقاء هو أشبه شيء بشقاء البشر الى قمة حضارة لا تختلف من بعض الوجوه عن حضارتنا

المسكن

— ١ —

يقال انه يوحد على الارض الف وخمسمائة نوع من الارَض والمتهور منها لا يتحاور الاربعين وكل نوع يمتار عن سواه نصفات حاصة به فمنه الماء الذي يقيم هصا نا فوق الارض ومنـه ما يعيش مكشوفاً ويحتار الساسب في خطوط طويلة بين صفين من الجنود تحتمي بها العمال ومنه ما تسلح الطبيعة جنوده بما يشبه المحقة ومنه ما يفتك بالاشحار الحية ويسقبها وحده كالـكواسر أو الصواري على حانب عطيم من القساوة ومنه ما تشبه مشافره[1] قرون التيس فتمدد كالرنبرك وتقذف به الى مسافة عشرين سنتيمتراً الى آخر ما هنالك

(١) المشافر جمع مشفر وهي من البعير كالشفة من الانسان وقد تستعمل للناس فاستعملناها هنا على المحار وترجمنا بها كلمة Mandibules ويمكن أن تسمى أيضاً الاحناك

ولا يخفى على القارىء أن درس طبائع هذه الحشرة المتحجبة حديث العهد فهو بعيد اذاً عن أن يكون وافياً ولا يزال ثمة نقاط كثيرة مجهولة ومواضع لم تكتشف وأسرار لم يُزح عنها الستار

ذلك لان علماء الطبيعة على كثرتهم قلائل في تلك الاصقاع الحارة النائية ولم يكن الارَض قبل اهتمام الامير كان به مما يستطاع درسه في المختبرات ومن الصعب وضعه في قفير أو علبة من الزجاج كالنحل والنمل . وأشهر العلماء لم يتسن لهم الانصراف الى ذلك لانه اذا دخل المختبر يوماً فلا يكون دخوله إلا للهدم والتخريب فضلا عن ذلك فان فتح ثغرة في وكر الارَض ليس بالعمل السهل المقبول لان القباب التي تغطيه هي من طين أصلب من الفولاذ تفلّ دونه الفؤوس ولا سبيل اليه الا بنسفه بالبارود . وكثيراً ما يرفض سكان البلاد عن خوف أو خرافة معاونة الاوربي ومشاركته في هذا العمل فيضطر كما ذكر (دوفيل) في سفره الى الكونغو أن يلبس برداً من الجلد ويغطي وجهه بالقناع ليأمن لذعات ألوف الجنود التي تهجم عليـه في لحظة وتحيط به من كل صوب ولا تتخلى عنه

ثم اذا فتحت هذه المعاقل فلا تقع عين الباحث إلا على ميدان واسع للجلبة والهرج الهائل دون أن تنكشف له أسرار الحياة اليومية على أنه مهما عمل الانسان فمن المستحيل الوصول الى أعماق

هذه الاوكار التي تتغلغل في الارض الى امتار

نعم في أوربا سلالة من الارض صغيرة الحجم ولعلها ُميب بالتقهقر والانحطاط وقد درسها أحد علماء الفرنسيين درساً وافياً منذ ٧٠ عاماً وهي تشبه النمل ولونها ابيض ضارب الى صفرة الكهرباء وأعلب ما تكون في سيسيليا وحوار بوردو حيث تقيم في جذور الصنوبر القديمة وهي على عكس أخواتها في البلاد الحارة قلما تقرب البيوت العامرة او ينتج عنها تخريب يذكر . وهي أصغر حجماً من النملة قليلة العدد ضعيفة البنية لا تؤذي ولا تملك ما تدفع به الاذى وقد يكون هذا النوع من الاقارب الفقراء ضرب في الارض فتاه عن موطنه الاصلي وأصابه الضعف والخمول ولذلك لا يصح أن يتخذ مثالا لدرس أخلاق ونظام تلك الجمهوريات العظيمة المنتشرة في الاقاليم الحارة

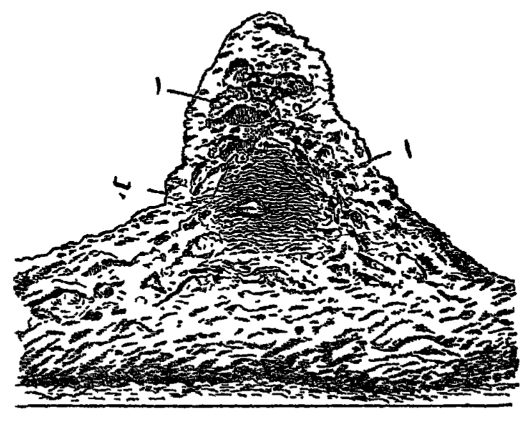
— ٢ —

بعض هذه الحشرات يعيش في جذوع الاشجار التي يحتفرها ويعد فيها مسالك وأسرابًا تذهب كل مذهب وتخترقها من كل ناحية حتى الجذور وبعضها يبني عشه في الاغصان ويوطده حتى يقوى على مقاومة الاعصار وحتى يمتنع على الانسان الاستيلاء عليه فيضطر الى نشره بالمنشار إلا أن الغالب فيه أن يتخذ مسكنه تحت الارض وبناء هـذا المسكن من أغرب ما عرف وهو يتغير حسب البلدان والسلائل والاحوال الموضعية والادوات التي يتاح للحشرة استعمالها بما ركب في طبيعة الارَضة من التوسع في الاستنباط والقدرة على ملاءمة الاحوال والاصطباغ بصبغة البيئة التي توجد فيها . وأهم هذه المساكن يعرى الى الارَضة الاوسترالية فيكون تارة شبه نبكة [1]

---

(١) النبكة أكمة محددة الرأس جمعها نباك

تعلو عن الارض نحواً من ٤ أمتار ومحيط قاعدتها ٣٠ قدماً
كانها قالب ضخم من السكر وطوراً كأكوام من الوحل أو
صلصال في حال الغليان هبت عليه ريح الجليد فجمدته فجأة . وحيناً
كرهط من الخلايا التي يخزن فيها النحل الحوشي عسله وقد كثرت



قرية الارض

ا — غرفة الفطر ب — حلية الملكة

مائة الف مرة . وآونة كطبقات من الفطر أو الاسفنج أو كأكداس
من التبن الذي طال عليه سقوط المطر الى ما شاكل ذلك . وأعظم
هذه البنى التي لا تراها الا في اوستراليا تختص به الارضة المغناطيسية
وقد سميت كذلك نسبة الى الابرة المغناطيسية فان ما تبنيه يتجه

أبداً من الشمال الى الجنوب فيتسع في أوله ويضيق في الآخر

وقد تعدد الافتراض في تعليل هذا الاتجاه دون الوصول الى حل صحيح شاف

وهذه الابنية المحددة الرءوس المتفرعة القمم المقوسة الدعائم والعمد المتراكب طينها طبقات بعضها فوق بعض تذكر الناظر اليها بتلك المعابد العتيقة التي أحدث فيها السنون واكلتها الرياح والامطار أو بالقصور المتهدمة التي تجدها في صور كشتاف دوره الخيالية أو فيما كان يرسمه فكتور هيجو بقطرة من الماء يضعها على بقعة من الحبر ثم يجرها على قرطاسه كما شاء تصوره الغريب

ومنها ما هو أبسط تركيباً فيبدو كالقناطر نصبت فوق أعمدة متعوجة وقد يستطيع الفارس أن يمشي من تحتها وهو شاهر رمحه ، أو كالآكام يعلو الواحدة منها ستة أمتار وكأنها مسلات واهرام بلغت منها الرثاثة والتهدم كل مبلغ بتداول الاعصار وتعاقب الليل والنهار

والسبب في هذه الهندسة الغريبة هو ان الأرضة لا تبني بيتها من الخارج كما نفعل نحن فضلا عن ذلك وهي عمياء لا ترى ما تعمل لتعالجه بشيء من التنميق . وماذا يفيدها البصر ما زالت لا تستطيع استخدامه لانها لا تجسر على الخروج ؟ وهي إذاً لا تهتم الا بداخل منزلها ولا تبالي بما تكون حاله من الظاهر . أما الطريقة التي تعول

عليها في صناعتها هذه مما لا يحسر عليه أمهر البنائين اليوم فلا تزال سراً من الاسرار لانه لم يتسن لاحد حتى الساعة أن يتتبع قيام هذا البناء وليس بالسهل درس ذلك في المختبرات . فان بيت الزجاج الذي توضع الحشرة فيه لا يلبث أن يغشاه الطين أو سائل آخر مما يلفظه بدنها فيسدل عليها حجاباً كثيفاً . ثم ان الارَضة تقيم عالماً تحت الارض وتنبسط في أنفاقها وما النتوء الشاخص الا تكملة البناء وهو مؤلف من فضلات التراب الناجمة عن الحفر فيرتفع ويمتد حسب حاجات المستعمرة [1]

غير ان أحد العلماء واسمه بونيون استطاع أن يدرس مدة اربع سنوات مستعمرة سيلان فدلت مشاهداته بعض الدلالة على النهج الذي تختطه الارضة في بناء أوكارها وعمر قراها . فان هذا النوع منها يقيم ارجه [2] في الارض تحت جذور شجر البقم وأحياناً النخيل المسمى كيتول والذي يستخرج منه سكان تلك الاصقاع شراباً مبرداً ، فترى حبالا رمادية اللون ممتدة من الجذور الى أعلى البراعم تنم على وجوده وهذه الحبال التي لا يتجاوز سمكها القلم إن

(١) المستعمرة بفتح الراء أي القبيلة أو الناس التي تعمر أرضاً ومنها في سورة هود « هو انشأكم في الارض واستعمركم فيها » أي جعلكم عمارها وأذن لكم في عمارتها . فيكون الثاني مستعمراً ترجمة Colonies وأراها أنسب من (الطوارىء) التي تطلق على من يأتي على قوم من بلد آخر

(٢) الارج بيت يبنى طولا

هي الا انفاق أقيمت لحماية العمال والجنود في ذهابها وايابها تحصيلا للقوت ، ولرد غارات النمل عدوها المخيف

وهـذه الانفاق المركبة من قراضة الخشب والتراب المتجمع عادت على العلماء المتوفرين على درس هذه الحشرة بجليل الفائدة لانهـا كانت سبيلا الى اماطة الحجاب عن بعض أسرارها وذلك انهم يعمدون الى السكين فينزعون بها قطعة صغيرة تمكنهم من الاشراف بواسـطة المجهر على ما يجري داخل النفق وتتبع عمل الارَضة في ترميم بنائها

وقد أجرى بوبيون امتحاناً مثل هذا على مزروعات سنيكودا في ١٩ ديسمبر عام ١٨٠٩ قال : « كانت الساعة الثامنـة صباحاً وكان النهار جميلا ودرجة الحرارة ٣٥ سنتغراد وكان النفق متجهاً نحو الشرق بحيث كانت أشعة الشمس تنيره من كل ناحية فبعد أن نحتُّ فيه مقدار سنتيمتر نظرت فاذا بعشرة من الجنود تتقدم نحو الثغرة وما لبثت أن اصطفت بشكل دائرة وهي مصوبة قرونها الى الخارج كأنها تستعد لدفع عدو وبعد غياب ربع ساعة عدت فرأيت عمل الترميم قد ابتدأ فكان صفاً من الجنود واقفاً عند الثغرة كما بينت أي رءوسها نحو الخارج وأجسامها الى الداخل وكانت تحرك قرونها وتمضغ أطراف الفرجة وتبلها بلعابها حتى بدا من حولها خط رطب غاتم اللون ثم جاءت أرَضة جديدة من طبقة العمال فتعرفت

الى المكان بواسطة قرونها وبعد الفحص أدارت ظهرها فجأة وأدنت قفاها من الفتحة وأبرزت من استها قطرة صفراء غير شفافة وعقبها عامل آخر يحمل في فيه حبة رمل فتقدم ووضع الحبة فوق القطرة المفرزة

وأخذ هذا العمل يتكرر دقيقة بعد أخرى بنظام تام وبالتناوب فكان كل صانع يتقدم في حينه وبعد أن يتبين الثغرة يدير قفاه ويبرز تلك القطرة الصفراء ويليه عامل آخر في فمه حبة الرمل أو قطعة صغيرة من الخشب فيضعها فوق البراز . أما الجنود التي كانت تحرك على الدوام قرونها فكأنها وقف على حراسة العمال وتدريبهم وادارة حركاتهم فكانت كلما تقدم عامل تتنحى وتفسح له الطريق كأنها تدله على المكان الذي يجب أن يحط حمله فيه

وقد دام هـذا الترميم وكله من الداخل ساعة ونصف ساعة واشترك فيه الصناع والجنود على السواء مع قلة الفئة الاولى بالنسبة الى الثانية »

وتسنى لباحث آخر هو الدكتور ايزريك أن يراقب حشرة أخرى اسمها أرضة رديماني Tnermine Rcdemani فوجد ان لهذه الدودة طريقة واضحة خصوصية وهي انها تبدأ البناء باقامة سلم أو مصعاد (صقالة) مركب من مجاري تجديد الهواء ثم تحوله الى عمارة سميكة بملاء الفارغ حتى يصير جسماً واحداً وتعالي عليه بالطين لتتساوى سطوحه وتتناسب أجزاؤه

— ٣ —

في بعض جهات أوستراليا الغربية ولا سيما في (الكاب يورك) على مقربة من (ألباني باس) تمتد مساكن النمل الاعمى الى مسافة ألفي متر فتنصب فيها على أبعاد متساوية اهراماً متناسقة الوضع يخال للناظر اليها انها قبور (وادي يوشافاط) أو مصنع حرف مهجور ولا يكاد الواقف على ظهر السفينة يصدق وهو ينظر اليها من البحر انها عمارة دودة لا تساوي النملة في حجمها

والحق يقال ان عدم التناسب بين العمل والعامل لما يدعو الى العجب فان مسكناً متوسطاً من هـذه المساكن أي ما كان علوه أربعة امتار يقابل اذا قيس بعمل الانسان بناء شاهقاً علوه ستمائة متر أي ما لم يصل الانسان بعد الى عمله

وقد تجد مثل هذه المستعمرات في جهات أخرى من الارض

الا انها على وشك الفناء أمام الحضارة لان الطين الذي يؤخذ منها لبناء البيوت والطرق لا مثيل له ، وقد تعلم الارض أن يدفع هجمات الحيوان عنه ولكنه لم يحسب لانسان اليوم حساباً . واكتشف العلامة آران سنة ١٨٣٥ في سهل براجواي واحدة من هذه المستعمرات الكبيرة تبلغ مساحتها ٤ أميال وقراها متراصة لا تبعد الواحدة عن الاخرى أكثر من عشرين قدماً فيظنها الناظر اليها عن بعد مدينة ضخمة مؤلفة من عدد لا يحصى من الاكواخ في ذلك المهمه الواسع

ولكن أعظم ما شوهد من هذه المساكن هو في افريقيا الوسطى ولا سيما في كونغو البلجيك حيث يبلغ العلو من ستة الى ثمانية امتار . وفي « موسوبو » قبر أقيم على أحد هذه البيوت كأنه على رابية فيشرف على ما حوله من الجهات . وفي احد الشوارع الكبيرة في مدينة اليزابت من أعمال « كاتانجا » العليا قرية عالية شطرها الشارع الى شطرين . وقد اضطر عمال سكة حديد سكانيا أن ينسفوا بالديناميت بعضاً من هذه الابنية فكانت أنقاضها تجاور في ارتفاعها مدخنة القطار . ومن هذه المساكن التي حرثت ما صار أشبه بالبيوت ذات الطبقتين ولا يتعذر على الانسان أن يقعد فيها

وقد بلغ من متانة هذه البنايات ان سقوط الاشجار الكبيرة وهو أمر كثير الوقوع في تلك النواحي لا يقلقلها ولا يضعف من جانبها وان قطيع الغنم يتسلقها ليرعى العشب النامي فوقها دون

أن يؤثر فيها . ونمو العشب فوقها راجع الى خصائص الطين الداخل في تركيبها فهو يخزن الرطوبة فضلا عن انه كثير الخصب زكي المنبت لانه مكون من برار الحشرة وفضلاتها . وقد ينمو مع العشب الشجر . والغريب ان الارَضة التي تهدم كل شيء في طريقها تحترم هذا الشجر كانه مقدس

أما عمر هـذه القرى فمما لا يسهل معرفته والمفهوم انها بطيئة النمو فقد تمر السنة دون أن يشعر الانسان بفرق في حجمها . وهي تقاوم طوفان تلك الاصقاع كأنها نقش في مهجة الصخر الاصم . ولا ينقطع فيها عمل الترميم أبداً فاذا استثنينا الانقلابات الفجائية فقد يكون عمر بعضها قديماً جداً . وقد انتهى البحاثة «وروكات» بعد الدرس الطويل الى الوقوع على واحدة منها امتدت بأهلها يد العفاء فباتت مهجورة . وزعم هيل ان ثمانين في المائة من قرى الارَضة يخرب في كوينسلاند الحموية تحت أقدام النمل الغازي عدوه الالد . وسنتكلم فيما بعد عن الحرب الارائية بين النملة والارَضة

هيا بنا أيها القارئ نصحب « فروحات » في فتح أحد هذه المعاقل المزدحمة بربوات الاحياء وان كان ظاهرها المقفر لا يدل على شيء من ذلك فتحالها أهراماً من الصوان ولا يتبادر الى ذهنك ما يغلي فيها ليل نهار من عجيب الحركة والنشاط

وقد سبق لنا الاشارة الى العقبات الكأداء التي تعترض الباحث وتمنعه من الوصول الى نتيجة ترضي من بحثه أما فروحات فقد أعد للامر عدته واحتط طرقاً أصلح للعمل مما جرى به سواه فاهتم بادىء ذي بدء بنشر العش بالمنشار من وسطه ثم انحرف به من الاعلى الى الاسفل فجاءت مشاهداته مع ما يضاف اليها من مشاهدات سابقة وافية بالمراد

تصور قبة من بقايا الخشب المصنوع والمحسول كالحب الصغير يتفرع منها كالاشعة مسالك كثيرة . وفي وسط هذه القبة على علو

٢٠ سنتيمتراً عن القاعدة قطعة مستديرة مختلفة الحجم حسب أهمية البيت على أنها اذا قيست على ما نعمله نحن كانت مع مراعاة النسبة أوسع وأعلى من قبة كنيسة القديس بطرس في روما . هذه القطعة مؤلفة من طبقات ليفيـة رقيقة رخوة ملتف بعضها على بعض على شكل كرة وهي ما يسمونه بالانكليزية Neursery أي دار الاطفال ونسميه هنا العش وهذا العش يحوي ملايين من الانقاف لا يزيد حجمها عن رأس الدبوس وله في جدرانه ثقوب عديدة لتجديد الهواء وحرارته اعلى من حرارة سائر المسكن كأن الارَضة عرفت قبلنا بزمان فوائد التسخين المركزي فانه كلما زادت برودة الهواء في الخارج زادت الحرارة الداخلية حتى ان سافاج أراد يوماً أن ينظر عن كثب بعد أن فتح أسراب المركز فجأة فهبت عليه لفحة حارة لطمت وجهه فتقهقر وهو يكاد يختنق وقد غطت زجاج نظارته غشاوة

كيف تبقى هـذه الحرارة الموضعة اللازمة على حالها وما هي الوسائل التي تستعين الدودة بها لحفظها ؟ ربما كان على قول سافاج بدورة الهواء سخناً وبارداً في المجاري العديدة التي تخترق الوكر أما منبع الحرارة فلا يمكن أن يكون من الشمس وحدها على اختلاف الفصول بل من اختمار بقاعة العشب والبقايا الغمقة أي الرطبة البردة الفاسدة

والى الجانبين من دار الاتقاف تجد اكداساً تحت الرمل مؤلفة من البيض المتطاول التشكل الابيض اللون ثم تنزل قليلا فتقع على عرفة الملكة ، أرصها ملساء وسقفها منخفض مقعر كزجاج الساعة والملكة متمددة فيها طول الحياة لا تستطيع الحركة بينا العمال والجنود القائمون بحراستها وتغذيتها يحولون دهاباً وإياباً وقد قدر بعضهم حجم الملكة بعشرين ألف مرة اكبر من حجم العامل ولهذا كانت حجرتها الملكية قابلة للتوسيع فتزداد مساحتها كلما راد بطن الملكة انتفاخاً . أما الملك فقلما يرى لانه يعيش محتبئاً تحت بطن عروسه الضخم . وسنأتي على دكر حياة هدا الروح الملكي وما كتب له القدر من شقاء وهناء

ويتفرع من هذه الغرفة طرق كثيرة تؤدي الى الطبقات السفلى حيث توجد دور واسعة تسندها الاعمدة ولا نعلم الا على وجه التقريب ما في هده الدور لان الوصول اليها يقتضي هدمها بالفأس والمعول والمعروف عنها انها مؤلفة من خلايا متراكبة بعضها فوق بعض يسكنها صغار الارض وكلما أمعنا في النزول بدا لنا عدد اكبر من هده الصغار . وهناك توجد المطامير [1] حيث تكدس بقايا العشب والخشب المصنوع مؤونة المستعمرة . على انها في غنى عن ذلك لان الغذاء لا ينقصها حتى في أيام القحط . لان

(١) حفر تحت الارض يخبأ بها الطعام

الجدران تقدم لها المؤونة اللازمة كما في قصص الجان لاعتدال طينتها وزكاء منبتها اذ أنهـا مصنوعة من براز الحشرة والبراز في هـذا العالم الذي نصمه لك أطيب غداء

وبعض أنواع الارَضة يستعمل قسما من الطبقات العليا في الوكر لزرع واستنبات الفطر الخصوصي الذي يقوم مقام الطفيليات (وسيأتي الـكلام عنها في الفصل التالي) وله وظيفتها من تحويل الخشب القديم أو العشب اليابس الى كتلة صالحه للهضم والتمثيل

وبعض الانواع الاخرى تقيم مقابر حقيقية في أعلى العمارة ووجود هده المقابر يدعو الى العجب لما نعلمه من ان الارَضيأكل موتاه ويتغذى بها الا اذا افترضنا انه في أيام الوباء (أو طارىء آخر) قد يقصر عن مجاراة الموت لاكل كل ما يعده له من الرمم فيجمعها ويكدسها لحين الحاجة على سطح المنزل حتى اذا جففتها الشمس أحالها الى مسحوق وجعلها مؤونة يتغذى بها شباب القرية

ومن هده الانواع من يذهب الى أبعد من ذلك فيتخذ مؤونة حية . وذلك أن القوة الخفية التي تدبر أمور هده المملكة قد ترى لسبب لا نعلمه ان عدد الرعية قد جاوز الحد المطلوب فتفرز الزائد منها في غرف خصوصية بعد ان تقطع قوائمها حتى لا تهزل بالحركة ثم تؤكل بالتدريج تبعاً لحاجة المجتمع

وهذا النوع له عناية خاصة بالنظام الصحي فان فضلات الدودة

وبرارها يجمع في موضع على حدة ويترك الى أن ينشف ويقسو ويصير ألذ طعماً

هذا هو نظام الوكر كما يبدو لعين الباحث على أنه قابل للتغير لانك لا تجد في الكائنات حيواناً مثل هذا يكره التقليد ويعرف أن يكون كالانسان في لينه وخضوعه للاحوال ومجاراته لها وسيتاح لنا غير مرة في عرض هذا الحديث ان نتحقق ذلك

— ٥ —

هذا النفق العظيم الممتد تحت الارض والمرتفع فوقها يتشعب منه أسراب لانهاية لها تنتهي الى حيث الاشجار والادغال والعشب ومنازل الناس فتجد الدودة ما تحتاج اليه من الخلاوور وهي المادة الحويصلية الجامدة التي تتركب منها خلايا النبات والياقها . وعلى هذا الوجه تغزو أحياء باسرها كما ترى في أوستراليا وبعض أنحاء جزيرة سيلان فتمد مسالكها الى كل صوب وتجعل تلك الارض غير صالحة لسكنى الانسان

وقد تملأ البلد من جانب الى جانب كما في الترنسفال وناتال حيث بلغ عدد القرى نحواً من ١٦ في مسافة لا تزيد على ٦٣٥ متراً وفي كاتاشكا العالية تعثر في كل هكتار من الارض على قرية يبلغ علوها ستة أمتار

والارَضة بخلاف النملة التي تعيش على سطح الارض وهي حرة

طليقة لا تغادر ظلمات قبورها الرطبة الحارة ولا تسير إلا في الحفاء فتعيش وتموت دون أن ترى ضوء النهار فهي دودة الظلام الا بدي واذا مست الحاجة ان تجتاز للتموين حواجز لا قدرة لها على خرقها فانها تقوم بتعبئة الجنود والمهندسين وهؤلاء يبنون ممراً متيناً مركباً من بقايا الخشب المصنوعة ومن البراز ويجعلونه على شكل الانبوبة ولا يدعون فرصة تفوت دون الاستفادة منها اقتصاداً في الوقت والعمل والنفقات فاذا أصابوا شقوقاً فيها فائدة أصلحوها وملسوها وجمعوا بينها . واذا فتحوا ممرهم على جدار جعلوا شكله كنصف أنبوبة بالاستفادة من الجدار أو على زاوية مؤلفة من جدارين اكتفوا بعموها [1] فخف عليهم تلتا العمل . وهذا الممر الذي يفتح فيكون على مقياس الحشرة بالضبط يتسع من حين الى حين ليتسنى لحاملي المؤونة اذا ما تلاقوا ان يفسحوا المجال بعضهم لبعض بدون عائق واذا كانت الحركة شديدة والازدحام عظيما فان الممر يكون أوسع ويجعل منه مَدَبٌّ للذهاب وآخر للاياب

وليسمح لنا القارىء قبل الخروج من هذا النفق ان يلفت نظره الى خاصة من أعرب وأخفى ما في هذا العالم الكثير الغرائب والاسرار فقد أشرنا فيما سبق الى الرطوبة التي لا تتغير في الوكر على الرغم من جفاف الهواء والارض المحروقة . وعلى الرغم من

---

(١) عما البيت يعموه عمواً غطاه بالطين والخشب

حرارة الصيف الطويل في تلك الاقاليم التي تغيض فيها الينابيع ويؤكل الزرع وينتسف كل ذي حياة حتى جذور الاشجار الكبيرة والحق ان نقاء هذه الرطوبة في الاحوال التي ذكرناها لما يدهش له العقل ويقف دونه المفكر وقد أسقط في يديه حيرة وذهولا حتى ان لونستون العالم الرحالة تساءل هل هناك طرق مجهولة تتمكن بها الارضة من اخذ اوكسجين الهواء وجمعه الى الهيدروجين الموجود في غذائها النباتي ليتكون منهما الماء الذي تحتاج اليه ؟ ذلك افتراض لم يثبته العلم بعد ولكنه غير بعيد الامكان وسنرى فيما يلي أن للارضة من العلم بالكيمياء والبيولوجيا مكانا نحسدها عليه

التغذية

— ١ —

لقد وحدت الارَضة لمسألة الغذاء حلاًّ علمياً وافياً يقصر عنه سائر الحيوان ما خلا بعض الاسماك فان هده الحشرة لا تتغذى نغير الحلاووز وهو كما قلنا المادة الجامدة التي يتألف منها هيكل النبات فهو اداً منتشر على الارض انتشار المعادن وايان نبت العشب أو نما الشجر كان لها منه مرعى خصيب . غير ان الحلاوور صعب الهضم فكان لا بد من استعمال الحيلة لجعله صالحًا لها وهده الحيلة تختلف باختلاف الانواع فبعضها يستعمل الفطر واسطة والبعض الآخر يعتاض عن الفطر نطفيليات تعيش في معاه . هده الطفيليات كثيرة العدد حتى انهـا تزن وحدها نصف ما تزن الدودة وهي لا ترضى غيرها مقراً . وقد توصل « كلاوفلاند » الى اخراجهـا من المعا بوضعه الحشرة يوماً كاملا في حرارة ٣٦ سنتغراد فثبت له انها هي المساعدة على هضم الحلاوور لان الارَضة لا تقوى على الحياة

بدونها اكثر من عشرين يوماً ثم تموت جوعاً واذا أعيدت الحلميات اليها قبل فوات الوقت أي قبل انقضاء العشرين يوماً فانها تعود الى الحياة الى ما شاء الله

ويمكن للعين أن تتبع من خلال المجهر أطوار هذا الهضم العجيب فترى الطفيليات تبتلع الخشب داخل الامعاء وتهضمه ثم تموت فتصير أجسادها غذاء للارضة

ولا تعيش الطفيليات خارج الامعاء حتى ولو وضعت على الحلاووز غذاءها الوحيد فكأنها لا تعرف هضم هذه المادة الا في مكان محدود هو امعاء هذه الهوام

وقد أجريت هذه العملية او الاختبار على اكثر من مائة الف حشرة

وأما الارضة الفطرية فهي اكبر جسما وأعرق حضارة وليس لتلك الصيوف سبيل الى احشائها لانها تستعمل لهضم الحلاوور ساتاً حقيراً من الفطر او السرخس فتزرع بزوره في مزيج من التراب والفضلات الآلية تجعله كالسماد لها وهكذا تجد وسط القرية مزروعات واسعة من هذا الفطر كما يصنع في ضواحي باريس المتوفرون على تربية بعض الفطر الصالح للأكل . أما طريقة زرعه وتربيته فلا تزال مجهولة لم نصل في مختبراتنا الى معرفتها او تقليدها

وكلما أراد الارض مغادرة وطنه الاول والمهاجرة الى ناحية

جديدة لا ينسى أن يحمل معه شيئاً من الفطر او بزوره

وقد كثر التعليل عن هذا الهضم المضاعف دون جدوى على انه ليس ببعيد ان اسلاف الارَضة فيما مضى من الحقب كانت تجد لها من الطعام ما يمكنها هضمه مباشرة بدون واسطة . فهل ألمت بها مجاعة أحرجتها أن تتخذ البقايا الليفية غذاء ففني ما في وسعها ما قدّر له أن يحمل في معاه هذا الضيف الحفيف ؟ ذلك افتراض يحملنا عليه أن الارَضة تستطيع حتى اليوم أن تهضم مباشرة مادة الهيموس المركبة من مواد نباتية حللها الفساد او هضمتها البكتريا. واذا حرمتهـا من حلمياتها لم يسرع اليها الفناء بل عمرت طويلا بفضل الهيموس

اذاً ما الذي حمل الارَضة على العدول عن اكل الهيموس ؟ ألانه قليل في البـلاد الحارة لا يسهل الحصول عليه او لان ظهور النمـلة جاء خطراً عليها وحاجزاً دونه ؟ يعتقد « كلافلاند » انها كانت تبتلع مع الهيموس قراضة الخشب وفيها كثيرمن الطفيليات فتزايد عدد هذه وعودتها على التغذية الليفية

تلك آراء قابلة للنقد على ان هناك ذكاء وارادة اختصت بهما الارَضة فلماذا لا يكون انهـا رأت من الانسب ان تكرم ضيوفها فتستغني بهـا عن الهيموس النادر الوجود والصعب المنـال وتصير

قادرة على الاقتيات بكل شيء . وهل كان الانسان في مثل حالها يعمل خلاف ذلك ؟

أما تربية الفطر فربما كان أصح تعليل له انه ولد على بقايا الحشب والعشب في المطامير فوجدت الارَضة هذا الطعام أقل خطراً واغنى غذاء وأسهل هضما من الهيموس فضلا عن انه يغنيها عن اقامة تلك الصيوف الغريبة في امعائها فصارت تستنبت هذا الفطر بنظام . وقد بلغت من اتقان ذلك انها تستطيع أن تحذف سائر الانواع التي تنمو في حدائقها وتبقي النوعين النافعين « أكاريك » و « كسيلاريا » كما انها تقيم الى جانب هذه الحدائق بساتين احتياطية تدخر فيها البرور حتى اذا بدا فجأة تعب او عقم في بعض الفطر امكنها الاعتياض عنه سريعاً

ويمكن أن يكون هذا كله اتفاقاً لا عن سابق تدبير كالكثير من مخترعاتنا غير ان هناك ولا ريب انداراً من الطبيعة يدلنا على الطريق الذي يجب أن نسلكه وما علينا بعد الانذار الا ان ننتهز الفرصة لاستثمار نتائجه وهذا ما قام به الارَض متحداً لذلك من الترتيب والنظام ما لا يختلف عن ترتيبنا ونظامنا . ذلك ما نسميه عند الانسان ذكاء واما عند هذه الهوام فليس الا قوة الاشياء أو روح الوجود

العمال

ان نظام الارض الاجتماعي والاقتصادي هو أشد غرابة وتعقداً واعجاراً من نظام النحل في القفير صانعات وانقاف ودكور وملكة هي في الواقع عاملة نمت فيها أعضاء التناسل وكل هـذا العالم غداؤه العسل واللقاح (pollen) الذي تجمعه العاملات. أما في الوكر الارَضي فاشكال الحياة اكثر عدداً وغرابة. وقد عد مولر منها ١٥ صورة خارجة كلها من بيض متشابه الظاهر. ولسنا نعمد في هذا الكتاب الى الاسهاب والتفصيل عن بعض هذه الصور المسماة بالنمر ١ و ٢ و ٣ بل نكتفي بدرس الطبقات الثلاث أي العاملة والمحاربة والمنتجة

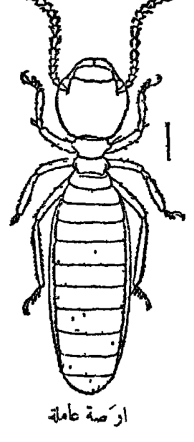
من المعلوم أن الانثى هي وحدها الآمرة المطاعة في مملكة النحل. من عهد بعيد قبل التاريخ غُلب الذكور على أمرهم سواء كان ذلك بعامل النشوء أم الانقلاب فانزلوا عن مقامهم الا بضع عشرات قبلتهـا الانثى الى أجل هـذه البقية خرجت من بيض

لا يختلف عن البيض الذي تخرج منه العاملات غير أنه لم يرخم فكانت فئة على حدة ، فئة مؤلفة من أمراء عاطلين شرهين أصحاب حلبة وشهوة منحطين في الذكاء محتقرين من سواهم لا نفع يرجى منهم وهم فوق ذلك عزل لا يملكون ابرة العاملة التي ان هي في الواقع الا مجرى للبيض أتى عليه دهر من التل دون أن يستعمل فاستحال الى سهم سام . فبعد طيران العرس واتمام الغرض الذي أرسلوا اليه يذبحون ذبح الذل والصغار لان العذارى القاسية القلب البصيرة بالعواقب لا تتنازل أن تغمد فيهم خنجرها الثمين المدخر للاعداء بل تكتفي أن تنزع عنهم أجنحتهم ثم تطرحهم على باب القفير ليموتوا برداً أو جوعاً

أما في مملكة الطلام وظلم الانثى لا أثر له بل قام مقامه نوع من التضحية هي الخصاء الاختياري فالعمال مؤلفون من الذكور والاناث على السواء الا أن دلائل الجنس قد محيت منهم ، وهم عمي لا يبصرون وعزل من الجناح والسلاح . الى هؤلاء العمال من الجنسين وكل أمر الحصاد وهضم الحلاووز وتغذية سائر الرعية ولا سبيل لاحد غيرهم سواء كان الملك أو الملكة أو الجند أو الدواب أو الكهول المجنحة (وسيأتي الكلام عنها) أن يستفيد من ذخائر الاكل الموجودة لديهم بل يموتون جوعاً على فراش وثير من الطعام على حد قول الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والسبب في ذلك أن الخلميات المساعدة على الهضم لا أثر لها في معدة الملك والملكة ونوابها والكهول المجنحة . واما الجنود فان ضخامة مشافرها تغطي الفم وتجعل تناول الطعام مستحيلا فالعمال وحدها إذاً تعرف ان تأكل وتهضم فهي المعدة العمومية وبطن الامة ، فاذا جاع واحد مهما تكن طبقته يلمس بقرونه العامل الذي يمر به فيقف هذا ويلفظ ما في معدته هذا اذا كان المتلمس صغيراً أي في إمكانه أن يصير يوماً ملكا أو ملكة أو ذا أجنحة . واذا كان كبيراً فان العامل يدير له قفاه ويلقي اليه ما في معاه بكرم وسخاء



ارَضة عاملة

تلك اشتراكية تامة كما ترى ، اشتراكية البلعوم والبطن . في هذه الجمهورية الغبية السائرة بخطى ثابتة نحو الغاية التي رسمتها لها الاقدار لا شيء يذهب سدى . فاذا بدل أحد ثوبه اكل الثوب أو مات افترس الحي جثته وعلى هذا الوجه لا تبقى فضلات بل يستمر التنظيف في كل ناحية من المنزل وهو تنظيف مفيد مغذ لان كل شيء

صالح للأكل . والبراز نافع الى ما لا نهاية له . بل يمكن القول ان هذا البراز هو المادة الاولى لكل صناعة وأساس كل عمل حتى التغذية وبه تطلى جدران الانفاق وتصقل دهان الاسراب واذا احتيج الى انشاء ممر أو بسط طريق ، أو بناية غرفة ، أو تشييد قصور ملوكية أو ترميم ثغرة ، أو سد شق . قد يدخل منه هواء رطب أو شعاع نور وهناك الخطر العظيم ، فالى بقايا الهضم المرجع الوحيد . فكأن الارَض كيمياويون من الطبقة الاولى قد تغلب علمها على كل عقيدة وعادة وكراهية فاقتنعت بفلسفتها أنه لا شيء في الوجود يمكن الاشمئزاز منه ما دام مرجع كل شيء الى الاجسام البسيطة أجسام نقية في نظر الكيمياء لا تفاضل بينها

وبالخاصية الغريبة التي لها من التحكم بالاجسام وتحويلها حسب الوظائف والحاجات والاحوال ينقسم العمال الى فئتين الكبيرة والصغيرة فالاولى سلحت بالمناقر القوية يتعارض شقاها كحلمي[1] المقص فتذهب الى بعيد في الطرق المكشوفة انتجاعاً للرزق بقرض الخشب وغيره من المواد الصلبة وتعود به والثانية اكثر عدداً تخامر[2] البيت لرعاية البيض والانقاف وصغار الارَض ولتغذية الحشرات الكاملة النمو والملك والملكة وللعناية بمخازن المؤونة وغير ذلك من أمور تدبير المنزل

(١) الحلم شق المقص (٢) خامر البيت أقام به ولزمه ولم يبارحه



الجند

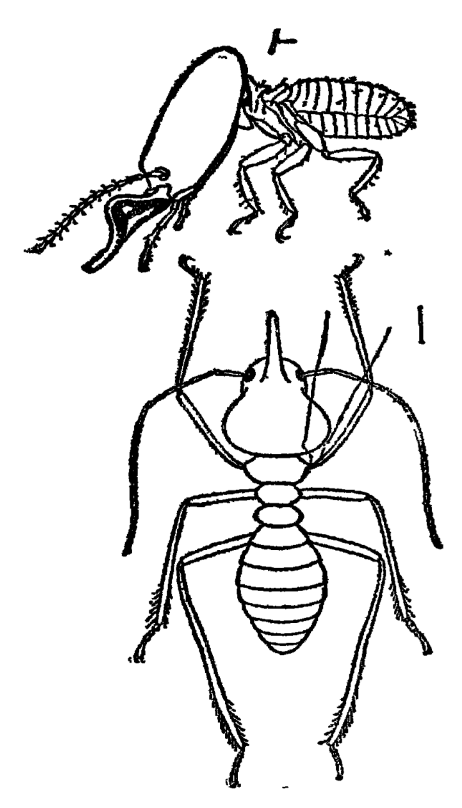
— ١ —

ان حمود الأرضة كعمالها لا أجنحة لها ولا عيون ، وقد محيت
منها مميزات الجنس فاشتبه ذكورها باناثها ولكنها تمثل لنا مظهراً
من أحلى مظاهر ما نسميه الذكاء أو السليقة أو القوة المبدعة أو
روح النوع والوجود أو غير ذلك من الاسماء

سبق قبينا انه لا يوجد على هذه البسيطة مخلوق مُني بالتعاسة
والحرمان مثل الارضة فهي لا تملك سلاحاً للدفاع أو الهجوم ولها
بطن رخو ينفرز بانمل طفل واذا هاجمتها أحقر نملة كان النصر
حليف هـذه عليها ، واذا اضطرت الى الخروج من حمائها وهي
عمياء عزلاء لا تملك غير أحناك ضئيلة تقوى على قرض الخشب
لا على افتراس العدو فانها لا تكاد تتجاوز عتبته حتى يسرع اليها
الهلاك . وهذا الخباء وطنها العزيز وكل ما تملك ، بل روحها الحقة

التي هي روح الجماعة والتي احكمت قفله كأنه مسلة من الصوان »
هذا الخباء أو العش أو الوكر أو القرية تجد نفسها في بعض أوقات
من السنة مصطرة الى فتحه من كل جانب ؟ مدفوعة الى ذلك بقوة
ناموس غريب مجهول يتحكم بهـا منذ القدم . وبما ان ألوفاً من
الاعداء تنتظر هـذه الساعة الرهيبة التي تساق فيها الأرضة الى
مجزرة هائلة تفنى فيها هي وكل ما تملك من متاع وحياة ويتلاشى
ماضيها ومستقبلها فقد عرفت أن تعد للخطر عدته وفعلت مثل
ما فعل الانسان رفيقها في الشقاء بعد احتماله الضيق والعذاب زمناً
طويلا فخلقت سلاحاً قوياً يضمن لها البقاء . فانك ان حققت لا تجد
حيواناً في وسعه الاستيلاء على المستعمرة وافنائها عن آخرها حتى
النملة فانها لا تستطيع الدخول اليها الا مفاجأة واختلاساً . والانسان
ابن الامس المجهول منها هو الوحيد الذي لم تحسب حسابه وتأخذ
الحيطة لنفسها منه وكان قادراً عليها بالبارود والمعول والمنشار

وهذا السلاح الذي صنعته لنفسها لم تجده من العالم الخارجي
بل كانت أقرب ما الى منابع الحياة فأوصت عليه في معمل ذاتها
واحصرته من جسمها ومادتها كأنها البنت البطولة لناس الهيولي
باعجوبة من أعاجيب ارادتها وتصورها أو باتفاق خفي مع روح
هذا الوجود أو بادراكها كنه شرائع الحياة التي لا تزال محجوبة عنه



جنديان من الأرض

فوق · جندي يقاتل بفكيه ـ تحت : جندي يقاتل بمحقنته

لانه من الثابت الذي لا ريب فيه ان الارضة فهمت أحسن منا هـذه الامور وكانت الارادة التي لا تتجاوز عندنا الادراك ولا تسيطر الا على الفكر أوسع نطاقاً عندها وأبعد مدى فتناولت كل مناحي الحياة المدلهمة

وذلك انها أخرجت من بيض لا يختلف عن البيض الذي يخرج العمال طبقة من الوحوش كأنها أشباح كابوس تذكرنا بأعمال بوش وبركهل وكالو [1] . رءوسها المصفحة كبيرة كبراً هائلاً ومناقيرها الضخمة تفوق حجماً سائر الجسم كأن الحشرة كلها درع مؤلفة من قرن ومنقرين كمناقير الـكركدن تحركها عضلات قوية . وهذه المناقير أصلب من الفولاذ ثقيلة ينوء بها حاملها فلا يستطيع الأكل بل يلقمه العمال إلقاماً

وقد تجد في المستعمرة نوعاً آخر من الجند صغير القامة لم تعرف

---

(١) بوش حفار ورسام هولاندي ولد سنة ١٤٦٢ وهو أول من رسم بالريت ورسومه غريبة في موضوعها وطريقتها ، واشهرها تجربة القديس انطوان

بروكهل مصور وحفار فلاماندي ولد سنة ١٥٣٠ من اعماله بناء برج بابل وهو نظير بوش في غرابته

كالو مصور وحفار فرنسوي ولد سنة ١٥٩٢ أكثر رسومه اخلاقية وهو مشهور بكلمته للويس الثالث عشر عندما طلب منه ان يرسم سقوط نانسي « افضل ان اقطع اصبعي يا ذات الجلالة » من اعماله مشاهد باريس ، مصائب الحرب ، والشيطانيات

بعد وظيفته لانه لا يقف في وجه العدو للدفاع بل يهرب كالعمال ولعله وجد للمحافظة على النظام الداخلي كالشرطة

ولاحدى طوائف الارَض جيش يفوق ما ذكرنا غرابة لانه لم يسلح بالمشافر بل يحمل في رأسه آلة غريبة الشكل تشبه المحقنة من المطاط التي تباع في الاجزاخانات وبهذه المحقنة يرشق الى مسافة سنتيمترين سائلا لزجاً يشل بها العدو حتى ان النملة تتخوف كثيراً هذا السائل وتحسب له حساباً . هذا السلاح المتقن كأنه قلاع محمولة يفصل الآخر حتى أن بعض الارَض على عماه يستطيع السير في الارض المكشوفة فيخرج في الليل زرافات يحصد العشب على حدود شجر النقم وقد أخذت عنه صورة بالمانيزيم فكان في مدته كساقية تجري وهو يعتس [1] ساعات متوالية بين صفين من الجنود قد ادارا محاقنهما الى الخارج لرد غارات النمل

ومن الارَض ما يخرج في ضوء النهار وهي فئة قليلة العدد لم تتخذ العَمى نذراً بل لها عيون كثيرة السطوح فتسرح في المهمه وراء الرزق عشرات عشرات ومن حولها جند يشرف عليها ويديرها ويحميها . وكلما قطعت مسافة صعد جندي من الحراس الى أكمة ينفض الجو ويستطلع الطريق فيسمع له صفير يجيبه عليه سائر

(١) اعتس طاف بالليل

الجيش باسراع الخطى وهذا الصفير هو الذي لفت أنظار سمثان فكان أول مكتشف لها

اما جنود الانواع الاخرى فلا تغادر قلاعها وثكناتها وهي لا تمصر أبداً كأنما القوة الساهرة على حفظ النوع أرادت ذلك لتربطها بوظيفتها على ان فائدتها موقوفة على اتجاهها نحو الخارج لان الصدر وحده مدرع واما الظهر فرخو كالدودة

— ٢ —

النملة عدو الارَضة الألدّ وهي عداوة قديمة يرجع عهدها الى ثلاثة ملايين سنة ولولاها لكانت الارَضة قد احتاحت القسم الجنوبي من الكرة الارضية الا اذا صح الرأي القائل ان ما امتازت به من نقب الارض وحفر الانفاق هو ابن الحاجة والضرورة دفاعاً عن نفسها وهرباً من النملة

ومن الأرَض ما لا يعرف البناء فيجعل سكنه في الاشجار وهو من النوع البسيط في تركيبه وارتقائه ولا فرق في وظائفه أو تمييز بين أعماله فيكتفي بسد الثغرة ببقايا الخشب والطين على ان منه ما خلق لنفسه جنداً خاصاً وهذا الجند يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين

وتزود النملة قرية الارَض دائرة حولها ليل نهار باحثة عن صدع او شق تنسل منه اليها ولهذا كانت الحيطة لها بالغة أقصى

المستطاع وكانت مراقبة الشقوق شديدة ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء فان هذه المارل تحتاج الى الهواء المتجدد وقد أقيم لذلك هندسة ونظام ليس من ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن

واذا أتيح للعدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فان أول ما يرى هو رأس أحد الجنود المدافعين وقد أخذ يضرب الارض بمشفريه انذاراً وتنبيهاً فيسرع الحرس ثم الفرقة بأسرها وتسد بجماجمها الفتحة وهي تحرك في الهواء احناكها الهائلة كأنها أدغال من الشوك أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية حتى تصيب العدو فتعض عليه عضاً شديداً ولا تتخلى عنه الا حاملة قطعة منه

— ٣ —

واذا طال العراك يستولي الغصب التديد على الحنود فيسمع لهـا عن نعد أمتار صوت رنان متسارع كدقات الساعة فيجيبه صفير من داخل العش . وهذه الغيهبة[1] او النشيد الحربي ناتج عن ضرب الرأس بالطين واحتكاك قاعدة الجمجمة بدرع الصدر وهو منظم الايقاع يسمع دقيقة بعد دقيقة

وقد يحـدث انه على الرغم من دفاع الابطال يتوصل بعض النمـل الى دخول القلعة فتحتدم المعركة ويحمى وطيسها وتضرب الجنود نطاقاً حول العدو بينما تكون العمال من ورائها آخذة بسد مداخل الانفاق بسرعة غريبة وهكذا يقوم الحرس بواجب التضحية ولـكن بعد أن تَسْلَم البلد

أما النمـل فيكتفي بنهب ما ظفر به وتسوق كل واحدة عدداً

(١) الحلبة في القتال

من الاسرى وترجع به الى وكرها . وقد كان طول جيش النمل في احدى هذه الغزوات متراً ونصف متر وعرضه عشرة سنتيمترات وله في مشيه أريز متواصل

أما جنود الارض فانها تبقى بعد تقهقر العدو حيناً أمام الثغرة ثم تعود الى قشلاقاتها وترجع العمال الهاربة طبقاً لنـاموس توزيع العمل الذي يضع البطولة في جانب والخدمة في جانب شارعة في ترميم ما تخرب بسرعة هائلة مقدماً كل منها كتلة براره وقد حسب ان ساعة من هذا العمل السريع تكفي لسد ثلمة بحجم الكف فتأمل . وقد روى سافاج انه دمر منزلا للارض في المساء ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلح وتم ترميمه وعولي بطبقة جديدة من الطين ولا عجب فان السرعة في العمل مسأله حياة أو موت وأقل اهمال في ذلك هو دعوة لاعداء كثار وحاتمة الاستعمار

— ٤ —

هذه الجنود التي تحسبها للوهلة الاولى كلها تخدم بالاجرة في قوطاحنة لا ترحم واكنها تخدم بشجاعة واخلاص لا يقف عملها عند هذا الحد ففي طائفة الموبوسروس تذهب منها طلائع لاستكشاف الطريق قبل النزول على شجر النقم وفي بعثات العيانور تقوم بوظيفة الضباط ومن المحتمل أن مثل هذا يجري في القرى المقفلة وان يكن من الصعب التثبت من ذلك لانه سرعان ما ينبرا كصوبن الى الثلمة عند أدنى إنذار فيصيرون كلهم جنوداً وفي احدى الصور المأخوذة بالمنظريم في أوستراليا تجـد اثنين من الجند يشرفان على جماعة من العمال تشتغل في قرض لوحة من الخشب . وهي تتحاشى البطالة ما أمكن وتجتهد أن تكون نافعة فتحمل البيض عساكرها أو تقف في منعطف الطرق كأنها تدير حركة الرواح والمجيء ومنها كما روى

سمان من كان يساعد الملكة على وضع البيض بضرب لطيف فيه تودد وعطف

والظاهر ان الجنود أذكى من العمال وأبعد همة كأنها طبقة ارستوقراطية وسط تلك الجمهورية السوفياتية الا انها حقيرة مثل ارستوقراطيتنا لانها لا تكفي لحاجات نفسها ولا بد من معاونة الشعب لها لتحيا بل ربما كانت أقل شقاء لان حظها ليس معلقاً كل التعليق باهواء الشعب العمياء بل هو في يد قوة عربية لم يمط عنها الحجاب . وسنحاول فيما يلي خرق أسرارها

سنرى في كلامنا عن المهاجرة انه في الساعات العصيبة التي يحوم فيها الفناء على المستعمرة تكون هذه الجنود قائمة بوظيفة الشرطة وهي محافظة على هدوئها وسط الهيجان والجنون كأن جمعية خصوصية « للامن العام » بدنتها واطلقت يدها في العمل . على ان هـذه الحرية المعطاة لها والتي يمكنها أن تفرط في استعمالها وتجاوز الحد بما اوتيت من السلاح الهائل ، لا تحميها من سلطة تلك القوة المجهولة الحاكمة ولا تمنعها أن تخضع كغيرها للارادة الخفية التي تدبر امور الجمهورية ، فاذا زاد عددها مثلا عن الطبيعي وهو خمس عدد سكان القرية فان تلك القوة المحجوبة التي لا تجهل قواعد الحساب على ما يظهر تتكفل حالا بازالة العدد الزائد وارجاع النسبة الى ما كانت عليه من قبل

ولا تحتاج في ذلك الى مذبحة كما يجري في دكور النحل فان مائة عامل لا تقوى على جدي واحد من هده الضواري التي لا تنال الا من القسم الحلي الضعيف ، بل تفعل ما هو أسط وأسهل وذلك بامتناع العمال من إطعام الجود فتهلك هذه جوعاً

أما الطريقة التي يتم بها تعداد الجود المحكوم عليها بالموت ووررها ووصعها في مكان منفرد فلا تزال عامضة كالكثير من امور هذه الاحياء العحيبة

وقبل أن نختم هـذا الفصل عن جدية مملكة الظلام بدكر للقارىء بعض حالات لها عريبة من الاستعداد أو الميل للموسيقى فهناك أصوات خاصة تكون تارة انذاراً وطوراً استنجاداً أونحيباً أو عير دلك وكلها دات ايقاع موزون تجيب عليه جماعة الأرَض بزحل خاص[1] مما حمل بعض العلماء على القول بانهـا تتخاطب لا بالقرون فقط بطير النمل بل بلغة نطق خاصة

على كل حال فان لها بخلاف النمل والنحل حاسة سمع دقيقة ولا يمكنك أن تتحقق ذلك في الاوكار العميقة أو القرى التي يحيط بها طبقة سميكة من الخشب المَسلوك[2] والطين والصلصال لان هدا كله يمتص الصوت ولكنك ادا اديت ادنك من المساكن المقورة

---

(١) الزحل · اختلاط الاصوات (٢) المسلوك بفتح أي المصنوع

في جذوع التسحر سمعت سلسلة من الاصوات لا يسعنا أن ننسبها الى عمل الاتفاق والمصادفة

وبديه ان مثل هذا النظام الواسع الدقيق وما فيه من توارن في القوى وتضامن في الاعمال لا يمكن أن يكون بغير تفاهم بين أبنائه وحسبنا دليلا على وجود هذا التفاهم انتشار المستعمرة الواحدة في جذوع كثيرة قد تكون متباعدة بعضها عن بعض ولكنها ملتفة حول عرش واحد أي ليس لها الا زوج ملكي فاذا زالت في أحد الجذوع فرقة الاحتياطي التي يحفظها الأرض للتعويض من الملكة في حال الموت أو العجز تسرع سكان الجذع المجاور الى اعداد فرقة جديدة بدلا منها وسنعود الى الكلام عن هذا الابدال أو التغيير الذي هو من اغرب وأبدع أشكال السياسة الأرضية

— ٥ —

وليست هذه الاصوات من عيهة واحتكاك أو صفير وانذار وايقاع ينم على احساس موسيقي كل ما عند الأرَضة . فان لها أيضاً حركات مورونة يشترك بها الجمهور ما خلا المولود الجديد كانها صادرة عن حوقة رقص وأنغام مما وقف عنده العلماء موقف الدهش والعحر وهي نوع من الرقص الاختلاجي تثبت فيه القدم ويتهادى الحسم متمايلا من الوراء الى الامام وعلى الحانبين . ويدوم هـذا الاختلاج ساعات مع فترات من الراحة قصيرة . واكثر ما يكون قبيل طيران العرس كانه حفلة صلاة أو تقديس تفتح الباب لاعظم ضحية تقوم بها الامة . ومن السهل مرأى هذه الحركات اذا خضت أو أبرت فجأة أنابيب الزجاج التي تحبس فيها الأرَض في المختبرات على ان ذلك شاق صعب لدورة نقائها طويلا في الانابيب فانها تخرق الصمامة من فلين أو معدن وتصل كاحسن الكيميين الى خرط الزجاج

الزوج الملكى

— ١ —

في حجرة مستطيلة الشكل ملساء الارض منخفضة السقف، منيعة الجوانب يعيش هذا الزوج الحزين الموكول اليه حفظ النوع دون أن يستطيع من موضعه حراكا . أما الملك فهو ملك بالاسم لانه زوج الملكة ، ضعيف حقير صغير جبان خجول لا ينفك مختبئاً تحت بطن زوجه . وأما الملكة فهي من أغرب ما يُرى في هـذا العالم الكثير الغرائب لان لها بطناً ضخماً هائلا منتفخاً بما فيه من البيض يكاد يتفزر لفرط تمدده وقد يبلغ طولها نحواً من ١٠٠ مليمتر حالة كون العامل لا يتجاوز ٧ مليمترات طولا

وهي عاجزة عن الحركة لانها لا تملك غير قوادم صغيرة في صدر غارق في الدهن

ومتوسط ما تضعه من البيض هو واحدة في الثانية أي ٨٦ الفاً في اليوم وثلاثين مليوناً في العام . ولا ينقطع وضعها ليل نهار مدة

الاربع أو الخمس السنوات من حياتها كما دل الاختبار والمشاهدة

وقد وُفق العلامة اررنج الى اقتحام الحجرة الملكية يوماً دون أن يزعج من فيها فرسمها رسماً خيالياً يبعث على الدهش لغرابته . وهذا الرسم يمثل لك الملكة كتلة هائلة من الدهن بيضاء جامدة تحت قبة مظلمة واطئة كبيرة بالقياس الى حجم الحشرة فتراها مضطجعة كأنها تمساح تحيط به البلَسم أي صغار السمك لان الوفاً من العشاق قد ازدحمت حولها تقبلها وتلحسها بلا انقطاع والظاهر أن هناك سبباً جوهرياً لهذا التشغف والحب فان ما يتصبب من جسدها لذيذ جذاب حتى أن الجند القائم على حراستها يلاقي عناء كبيراً في منع هؤلاء العباد من التمادي في الهوى باقتطاع شيء من ذلك الجلد الملكي نفعاً لغلتهم وارضاء لشهواتهم . وهذا الشره على الملكة والنهم فيها هو السبب في أن الملكات العجائز تظهر كالثوب المرقع لكثرة الندوب وآثار الجراح فيها

ومن حول الفم الذي لا ينبع يزدحم مئات من صغار العمال لالقامها الطعام كما يزدحم غيرهم حول الطرف الآخر لالتقاط ما يتساقط من البيض وغسله وحمله الى المكان المعد له . وبين هذه الجماهير المنهمكة بعملها تمر جنود صغيرة من الشرطة تحفظ النظام أما الجنود الكبيرة فتحيط ذلك المعبد استعداداً للطوارىء وهي

مصطفة بترتيب جاعلة صدورها المصفحة الى الخارج فاتحة مشافرها الهائلة لاستقبال العدو المفاجيء

وعندما يصيب الملكه وهن فيقل وضعها يمنع عنها الغذاء وتترك الى أن تموت جوعاً وهو نوع من قتل الملوك لا تقع تبعته على أحد واذ ذاك تؤكل جثتها بشره غريب ولذة عظيمة لكثرة دهنها ثم ينصب بدلا منها ملكة اخرى

والتزاوج هنا لا يتم كما في النحل أي أثناء طيران العرس لان أعضاء التناسل لا تزال ناقصة النمو ولا تكمل لا بعده فيقص حينئذ كل من الزوج أجنحة الآخر (رمزاً الى التضحية العظمى) ويدخل الى حجرته في ظلمات القرية فلا يفارقها حتى الموت

المهاجرة

— ١ —

تبين مما تقدم أن العمال والجنود والملك والملكة هم قوام تلك الجمهورية التي تتحكم بها شرعة من حديد أقسى من شرعة اسارتا فتعبر بها وادي الحياة في ظلام أبدي ملؤه النخل والقذارة ونمط من العيش لا يتغير . ولكن الى جانب هذه الاسرى التي لم تر ولن ترى أبداً ضوء النهار تنشيء الامة بلا حساب فئة من المجنحات ذوات العيون المتعددة السطوح وتهيئها في تلك الغياهب المكتنظة بالكمه [1] الى اقتحام شمس المناطق الحارة

هذه الفئة هي الحشرات الجلاء أي الكاملة النمو التي تتمتع وحدها بمميزات الجنس من ذكر وأنثى والتي سيخرج منها يوماً إن شاء القدر القاسي زوج ملكي فيه ضمان البقاء لقرية أخرى . فهي

(١) جمع أكمه وهو المولود أعمى

اذاً كل الامل والابهة والغبطة في هذا البلد المقبور الذي لا يملك سواها طريقاً الى السماء والحب

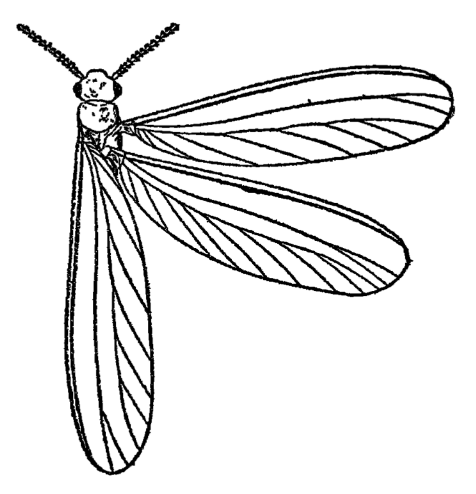
وهي كغيرها لا تهضم المادة الحويصليـة أي الخلاووز لخلو معاها من الطفيليات فتلقم الطعام محهزاً وتضرب في مجاهل تلك الظلمات لا عمل لها ولا هم الا انتظار الاوان للحصول على الخلاص والسعادة . فاذا ولى الخريف ودنا موعد المطر دقت ساعة الحرية فاذا بالقلعة الحصينة المحكمة السدود المنفصلة عن العالم الخارجي كل الانفصال والتي لا منافذ لها إلا ما كان تحت الارض أو ما هو لتجديد الهواء قد أصابها نوع من الجنون فانفتحت في جوانبها فجأة نخاريب لا تحصى [1] ومن وراء هذه النخاريب وقفت الجنود تحمي برءوسها الهائلة الدخول والخروج . هـذه النخاريب تتصل بأسراب وأنفاق قد ازدحمت فيها المجنحات وهي تنتظر بفروغ صبر إفلاتها من الاسر . حتى اذا صدرت الاشارة الخفية وأمرت القوة الحاكمة المجهولة انسحبت الجنود من مواقفها فانكشفت الثغور وشق للعرائس طريق الفضاء

وحبذا يبدو للعين مشهد يفوق مشهد النحل روعة وجمالا فان البناية العظيمة نكة كانت أو هرماً أو قلعة تصير كالمرجل الغالي يكاد ينفجر

---

(١) جمع نخروب وهو الشق في الحجر أو الثقب في كل شيء

ومن شقوقها العديدة يرتفع ضباب كثيف مؤلف من ملايين الاجنحة الشفافة المضطربة في الهواء ساعية وراء الحب سعياً يساوره الريب وتصفعه الخيبة . منظر جميل غير أنه قصير العمر ككل



أرضة بالغة وقد بسط جناحاها اللذين بالأيمن

ما هو حلم أو دخان فلا يلبث الضباب أن يهبط بأجمعه الى الارض جاعلا لها غطاء من تلك الاشلاء وهكذا ينتهي العيد وقد نكث الحب بعهوده وحلّ الموت محله

ولا يكاد يسدل الستار على هذا المشهد حتى تعقبه مأساة أخرى

أشد هولا فان الاستعدادات السابقة وإلهام السليقة الدي لا يخدع يدعوان كل مشتاق الى تلك المأدبة السنوية التي تقيمها عرائس الارَض فتحتشد العصافير والحيات والهررة والـكلاب وسائر الحشرات ولا سيا النمل وتهجم على هـذه الفرائس المحرومه من الدفاع والتي تغطي أحياناً ألوفاً من الامتار وتبتدىء المجزرة الهائلة كل على قدر حشعه وشهوته بل ربما أفرط بعضها في الأكل كالعصافير خرجت من الوليمة وهي لا تستطيع قفل مناقرها . والانسان نفسه يشترك في اقتسام الغنيمة فيجمع ما يصيبه بالمجرفة ويأكله بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللور ويبيعه في السوق كما في جزيرة جاقا

وبعد الطيران وخروج آخر فحح من القرية تقفل هذه بأمر القوة المحجوبة المدبرة وتسد السراديب في وجه الخارجين كأنما حكم عليهم بالنفي المؤبد

ماذا يحل بهؤلاء المنفيين ؟ يزعم فريق انهم يهلكون عن آخرهم جوعاً وقتلا وفريق آخر يزعم ان أزواجاً منهم قد تتمكن من الخلاص فيلتقطها عمال وجنود مستعمرة قريبه لتملأ فراغ ملكة ضعيفة أو ميتة ولا يقولون كيف يكون هذا الالتقاط ، والخروج الى الهواء الطلق ممنوع على الجنود والعمال وسائر القرى محكمة الاقفال كالتي

أفلتت منها تلك الارواح . وهناك زعم ثالث وهو ان الروح يستطيع البقاء عاماً كاملا فيربي فيه جنوداً للدفاع وعمالا للتغذية ولكن من أين يتاح له هذا البقاء وهو لا يملك الطميليات التي يتم بها هضم الحلاوور ؟ كل هذا كما ترى افتراض في افتراض لا يكشف الغموض ولا يسلم من التناقض

— ٢ —

لا ريب أن مثل هذا الحادث في جمهوريه كهذه معروفة بالبخل والتقتير والحذر يعد تبذيراً في القوى وإسرافاً في المال والارواح لا نفهم له معنى ولا سيما لان هذه التضحية العظيمة المقدمة كل عام لآلهة النوع وغايتها القصوى الرواج المبادل (Croisé) تأتي من دون الغاية وتقصر عن مرماها . لان مبادلة الارواح لا تتسنى الا اذا حشدت القرى وتلاصقت وكان طيران العرس منها جمعاء في آن واحد وهو امر نادر الوقوع . ولعل هناك نقصاً في المشاهدة والاختبار يعترض دون الوصول الى الحقيقة

ويزعم سلفستروس ان بعض أنواع الارضة يحسب حساباً لهذه الرزايا فلا يهاجر الا ليلا او في اليوم المطير كما ان سواه لا يخرج جملة بل جماعات متفرقة فلا يتعرض بأجمعه للخطر وتدوم

هجرته أشهراً . ولا بد هنا من تذكير القارىء ان شرائع الأرض قابلة للتغيير بل ربما كانت الارضة وحدها قادرة أن تتلوى مع الزمان كالانسان وتعرف عند الضرورة بخلاف سائر الحيوان المقود بالغريزة ان توفق مثلما بين أحكام القضاء وضرورات الحياة والساعة . فاذا كانت مثلا تسعى الى ارضاء الطبيعة وتلبي دعوة النوع والمستقبل بقيامها بناموس المهاجرة على ما فيه من عبث وحيف فانها تعرف ان تخفف وطأة هذا الناموس عند الاقتضاء أو تستغني عنه تمام الاستغناء

وهي ملكية في الاصل بل عندها أحياناً ملكتان في حلية واحدة يفصل بينهما حاجز كما روى سافاج او ست ملكات على رغم هافيلاند فضلا عن الملوك والملكات التي لا تقع تحت المشاهدة لما تتخذه العمال من الذرائع تسهيلا لاخلاء سبيلها فيتعذر علينا اكتشافها حتى ان هافيلاند بقي يبحث ثلاثة أيام قبل العثور على واحدة من هذه الملكات مخبأة في أعماق العش تحت القذارة [1]

ويجب على الملكة أن تكون محجبة رأت يوماً ضوء النهار غير انه يعتاض منها للضرورة بثلاثين من البوائض [2] التي لا أجنحة لها ولم تغادر أبداً عشها . كذلك لا تقبل الارض ملكا غريباً ولكن الحاجة تضطرها اذا خلا عرشها أن تأخذ من يتاح لها .

(١) النقية من كل شيء (٢) جمع بيوض بالفتح أي كثيرة البيض

ولكل قرية نوع مخصوص الا أنه قد يجتمع في القرية الواحدة نوعان أو أكثر وهذا التصرف وما فيه من التناقض في الظاهر يرمي الى غاية واحدة هي سعادة القرية وفلاحها

على انه لا يزال حول هـذه النقاط كثير من الشك يدعونا قبل الحكم عليها الى انتظار نتائج جديدة من المشاهدة والاختبار وليس هذا بالامر اليسير فانه يوجد كما بينا ١٥٠٠ نوع وهي تختلف بعضها عن بعض في النظام والطباع والظاهر ان منها من وصل كالانسان اليوم الى أحرج موقف او أصعب نقطة من ارتقاء قديم كانت بدايته منذ ملايين من السنين

— ٣ —

الملكية هي اذاً شعار الحكم في قرية الأرَض ولكنها تختلف عن ملكية القفير فلا تتقيد بها الارَضة كما تتقيد النحلة بل كان دستورها مرناً فيه من الحكمة وبعد النظر ما يدل على ارتقاء سياسي لا شك فيه . فاذا كانت الملكة او بالاحرى المفوضة لوضع البيض (لانه في الواقع لا وظيفة لهـا غير ذلك) قائمة بواجبها خير قيام أبقي عليها ولم يكن لهـا ضرائر وبالعكس اذا انتابهـا الضعف او قصرت في عملها فيمنع عنها القوت لتموت جوعاً أو يضاف اليها من يساعدها . وقد يبلغ عدد الملكات المساعدة نحو الثلاثين ولا يؤثر ذلك في نظام المستعمرة بل تبقى زاهية زاهرة لا كما يحدث في القفير عندما تكثر النوائض اذ تعم الفوضى وينتشر الخراب

والارَضة بما لها من خاصية السلاسة [1] في تركيبها الجامع بين

(١) السلاسة هي اللين والسهوله والانقياد وقد ترجمت بها كلمة Plasticité

مزايا الحياة في طورها الاول ومزايا الحياة البالغة أعلى درجة من الارتقاء وربما أيضاً عالها من المعارف الكيمية والبيولوجية التي تجهلها تستطيع في كل حين بالتغدية الملائمة والعناية اللازمة أن تحول النقف الى جملاء أي حشرة كاملة النماء وأن تخلق لها عيوناً وأجنحة في أقل من ستة أيام او تخرج من البيضة عاملا او جندياً او ملكاً او ملكة ولهدا تحفظ أبداً فئة احتياطية مستعدة لهدا التحول

الا أنها لسبب لا نعلمه لا تحول البيضة او النقف الى ملكة كاملة بعيون وأجنحة كالتي طارت ألوفاً على أمل التلقيح في حجرة العرس بل تكتفي باخراج بوائض مكمهات لا أجنحة لها لتقوم مقام الملكة بدون أن تجلب الضرر للقرية وهدا ما لا يستطيعه النحل فان العاملة البيوض التي تخلف الملكه الميتة لا تخرج الا دكوراً لا تشبع وتسوق اعى قفير الى الخراب والفناء في بضعة أيام

ولا يستطيع الانسان التمييز بين قرية فيها ملكة واخرى فيها بوائض وقد زعم البعض ان البوائض لا تولد ملوكا وان دريتها محرومة من الاجنحة والعيون هدا ممكن ولكنه غير مؤيد بالبرهان على انه لا يهم المستعمرة والدي يهمها أن تخرج عمالا وجنوداً لان الزواج المبادل قلما تحصل عليه كما مر معنا . على كل حال فان كل ما له علاقة بهدا التغيير والتبديل في الاشكال لا يزال موضع الشك والخلاف

والذي لا يزال ايضاً موضعاً للخلف او على الاقل لم يستوف البحث هو مسألة الغرباء الذين تضيفهم الارضة فانه فضلا عن الطفيليات وهي ضيوفها الشرعية تجد في القرية عدداً كبيراً من الإمعين العائشين في اكنافها بلا عمل [1] ولم يحص عددهم بعد كما في قرية النمل فقد عد واسمان العالم الكبير نحواً من ١٢٤٦ نوعاً من ضيوف النملة ، بعضها لا فائدة منه فيأتي ملتمساً الغذاء في ظلال الانفاق الرطبة فلا تردّه النملة لانها ليست من النحل كما وصفه لافونتين وبعضها لا تزال وظيفته مجهولة ولاسيما القمل الكبير الذي يلم بالنملة المسماة Lasius Mistus فانك تجد منه اثنتين أو ثلاثاً على النملة الواحدة في موضع لا يتغير فواحدة تحت الذقن واثنتان على

(١) جمع إمعٍ بكسر ففتح وهو متبع الناس الى الطعام من غير أن يدعى ترجمة Ecornifleur والعامة تقول « نصاب »

جانبي البطن بحيث لا يختل التوازن في المشي . وهي أي النملة تأبى بادىء ذي بدء قبول هـذه الضيوف ثم لا تلبث أن تعتادها ولا تفكر في التخلص منها بعد ذلك . من هو التهيد في القديسين الذي يحمل بلا شكوى ولا تذمر مدة الحياة حملا مثلثاً كهذا ثقيلا مزعجاً . أما النملة وهي تحمله تصبر بل تغذيه كأولادها فاذا أصابت مثلا لعقة من العسل فانها تملأ بطنها وتعود الى وكرها فيجتمع عليها النمل محدوناً بالرائحة فتلفظ العسل وتطعم الجميع بسخاء ويستفيد ضيوفها من ذلك بلحس ما يلصق بها من السائل الثمين ولا تعارض هي بل تصبر وتسهل لها العمل منتظرة مع رفقائها قيام الضيوف عن المائدة كأنها تشعر بلذة غريبة في حملها هذا القمل ، لذة لا نفهمها نحن وما نفهم إلا القليل من عالم الحشرات

ولنعد الى الارَضه فان ضيوفها المعروفة حسب تعداد وازن سنة ١٩١٩ تبلغ الخمسمائة وكل يوم يأتي باكتشاف جديد وهي تنقسم الى ضيوف اصدقاء وضيوف تعامل معاملة الاعداء وبين هذا وذاك فريق لا نفع يرجى منه ولا أذى يخاف فيغض عنه الطرف ولا يهتم به

التخريب

— ١ —

ان قوى الارض بانتشارها وتعددها وتسرعها القاسية البالغة منتهى النظام وبحيويتها وتناسلها الهائل قد تكون خطراً عظيماً على البشر وربما غطت وجه البسيطة لولا معاندة الاقدار لها وجعلها سريعة العطب شديدة التأثر من البرد فهي لا تحتمل من الحرارة إلا ما كان تحت درجة ٣٦ سنتغراد وفوق ٢٠ وهذا ما جعل بقية المناطق في مأمن منها على انها حيث أقامت كانت عاملاً للهدم والتخريب وما أقلت الارض في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دائمة مع الانسان فتأكل بيوته من أساساتها وتفني ما عنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب ونعال ونبات ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب المطيع الذي يتم في الخفاء فتعده من خوارق الوجود . وانك لتجد أشجاراً كبيرة سليمة في الظاهر فلا تكاد تمد اليها يدك حتى تنهار لتأكلها من الباطن . وقد

كان اثنان من الشرطة في ستت إلى يتحادثان في ظل شجرة فاستند أحدهما اليها فاذا بالشجرة الضخمة قد هوت عليهما وغطتهما بحطامها . ويتم هذا التخريب بسرعة تفوق التصور فان فلاحاً من كولين اسلاند ترك مساء يوم مركبته في حقل وعاد في الصباح فلم يجد باقياً منها إلا الحديد . ودخل طارىء منزله بعد غياب خمسة أيام فلم يجد تغيراً في شيء ينم على وجود العدو فجلس الى كرسي فوقع به ، فاستند الى الجدار فسقط الى الارض فمد يده الى روافد السقف فهبط عليه وانتشر من حوله ضباب من الغبار . أمور لا تلحقها الظنون كأنما هي مسيرة بروح ساحر شيطان كالاشياء التي تمثل على ملعب الشاتليه باريس

وقد قضى سميثمان ليلة بالقرب من قرية الارض ليتمكن من درسها فأكلت قميصه عن بدنه ولم تجد الخيطة « هنري بارك » قميصاً في يومين اسرته وبسطه وهذه محارن الفول في كمبريدج من اوستراليا فانها تهب لها بما فيها من لحوم وخبز وجزر وتين وصابون حتى انها تخرق الشمع والقصدير الذي يغطي رءوس القوارير وتصل الى صمامات المليء فتثقبها ويسيل ما فيها . كذلك الحديد الابيض الذي تصنع منه علب السردين فانها تفتك به بحذق وبراعة فتصيب أولاً طبقة القصدير حتى اذا انكشف الحديد اطلقت عليه سائلاً يؤكسده ويسهل خرقه ولا يعصى عليها الرصاص مهما

كان سميكاً . وقد حرب وريق أن يدرأ اذيتها بوضع الصناديق وحقائب الثياب فوق قناني مقلوبة رأساً على عقب ومغروزة في التراب لان ارجل الحشرة صغيرة لا تجد مأخذاً اليها فلم تمض أيام حتى كان الارض قد عبر سطح الزجاج وعبد له الطريق فصار يروح ويجيء عليها بسهولة لان السائل الذي يفرزه يذيب الزجاج كما يذيب « السليكات » الموجودة في سوق السات غذاءه وهـذا ما يوضح لك السبب في متانة وصلابة الطين الذي يطبخه

ولهذه الهوام ايضاً حركات وأعمال مضحكة لغرابتها فقد حكى « فورب » الرحالة الانكليزي انه عاد يوماً الى منزله بعد أيام قضاها عند صديق له فوجد الصور المعلقة على الجدران مأكولة عن آخرها مع أطرها الخشبية وبخلاف ذلك الزجاج الذي كان يغطيها فانه بقي سالماً عالقاً بالحائط من أطرافه بواسطة طبقة من طين الحشرة كأنها أرادت بذلك أن تمنع سقوطه خوفاً من احداث جلبة تنبه اليها السكان وقد يقع لها ان تدعم بهـذا الطين جسراً (كوبري) أكلته من الداخل حذراً من انهياره قبل أن تقضي الوطر من نعمتها

كل هـذا يجري دون أن يشعر أحد به ولولا وجود أنبوب صغير من الصلصال تقع عليه العين عند الامعان في احدى الزوايا أو بجانب روافد البيت أو أطناف الجدُر لما أمكن الانتباه الى شيء

من دلك فان هـذه الدودة العمياء تستطيع أن تعمي الـاس عنها فتحري حركاتها في سكوت وهدوء واذا لم تكن الادن متعودة لم تسمع في الليـل صوت الوف الاحاك التي تخرط البناء وتنبيء بسقوطه القريب

والمهندسون من الـكونغو يحسبون الحسـاب لهذا التخريب فيضيفون الى بيانهم للنفقات ٤٠ في المائة ريادة كما ان خطوط السكة الحديدية تغير كل عام وكدلك عمد التلغراف والجسور من جراء تأ كلها والويل لمن ينسى ليلا لباسه في الخـارج فانه لا يجد عند الصباح من آثاره سوى الاررار المعدنية

— ٢ —

تلك هي عادة أعمال الارَضة في التحريب المعرلي وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة باسرها ففي عام ١٨٤٠ أسرت احدى السفن المعدة لتحارة الرقيق فادحلت الى عاصمة سنت إلن (حامستون) نوعاً من الارَض البراريلي الصغير دي الحدود المسلحة بالمحاقن فهدم قسما من المدينة وفعل بها فعل الزلازل

وفي عام ١٨٧٩ نشب الارَض سفينة حربية اسبانية في ميناء « فرول » فلم يبق ولم يذر . وزعم الجنرال لكرك ان جزر الانتيل الفرنسوية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الانكليز لان الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل وتركت المدافع والذخيرة في حالة لا تصلح للعمل . ولطال بنا الشرح لو اردنا ان نعدد الجرائم التي يرتكبها هذا العدو الشديد الحول على ضعفه وقد سبق فقلنا انه غلب الانسان على أمره في بعض نواحي اوستراليا وجزيرة سيلان فامسك

عن الزراعة . وفي جزيرة فورمور أرَضة تخرط حتى الهاون وتدك الجدران اذا لم تمسك بالطين امساكاً شديداً

ويظن للوهلة الاولى ان التخلص من هذه الدودة سهل بهدم مسكنها لانها صعيفة لا تقوى على احتمال النور ولكنها عرفت ان تتقي ضربات الانسان على ما يظهر فقد دلت المشاهدة انها لا تعود أبداً الى بناياتها العالية بعد نسفها بل تكتفي بالاقامة في الاسراب والدماميس [1] التي تحجبها عن الناس وتجعلها عزيزة الجانب بعيدة المرام

وقد حمى البرد اوربا منها حتى اليوم ولكن من يدري اذا كانت لا تتعود مع الوقت على المناخ البارد وهي كما نعهد قادرة على ملاءمة البيئة والانقياد لاحوال الزمان والمكان وقد وصف لنا علماء العصر الغابر نوعاً من الارَض حملته المراكب من سان دومنج فغزا بعض مدن الشارانت وعلى الخصوص اكس والروشل فامحت شوارع باسرها وتداعت بيوت كثيرة وحاق الخطر بالروشل حتى اضطر الى وصل المرفأ بالحفر بواسطة قناة لاقاريير . والى دعم مصنع الاسلحة ومستودع البارود ودار الحكومة . وما كان أشد دهشتهم عندما المّوا سجلات الادارة وسائر الاوراق محورة كالاسفنج

---

(١) جمع ديماس وهو السرب والمكان العميق لا يصل اليه الضوء

القوة الخفية

— ١ —

في قرية الارَض كما في قفير النحل لغز عظيم . من هو الحاكم الآمر الناهي الذي يقيم الوزن ويسن النظام ويرسم الخطط ويدير الحركات ويوزع الحياة والموت ؟ لاجرم أن يكون ذلك غير الاسرة المالكة المقيدة بخدمة وظيفتها المحتاجة الى فصل العامل لتغذيتها الاسيرة في حجرتها بل الوحيدة التي لا يجوز لها أن تغادر مكانها . فالملك جبان خائف جهول خجول يسحقه بطن الملكة . والملكة إن هي الا الضحية العظمى لنظام كله تضحية فتظل تحت المراقبة الشديدة حتى اذا قصرت في واجبها منع عنها القوت فماتت جوعاً . ومتى ماتت أكلت جثتها فلا يضيع منها ذرة ونصب مكانها غيرها من الفئة الاحتياطية التي تصير بين لحظة واخرى قابلة للولاد

وليس الجنود باكثر من الملكة أهليـة للحكم فان هؤلاء المساكين رازحون تحت أثقال السلاح محرومون من صفات

الجنس ومن العيون والاجنحة ولا قدرة لهم على الطعام الا بالالقام.
كذلك المجنحات من امراء وأميرات فانها تظهر ظهوراً لامعاً
قصيراً وتموت موتاً منكراً قبيحاً

بقي العمال مطبح الجمهورية بل معدتها الهاضمة ، العبيد والسادة
في آن واحد ، فهل كانت هذه الفئة « سوفيت » القوم لها وحدها
الارادة والكلمة دون سواها من المبصرات والمجنحات والمسلحات؟

والغريب ان المستعمرة تعيش على هده الصورة عصوراً متوالية
ولم يرو التاريخ عن جمهورية ديموقراطية طال عليها القدم وعز على
الموت الوصول اليها

لا ريب ان بين العمال تفاهماً نجهل طرقه وأسباباً من المفاوضة
لا ندركها والا فكيف تسمع الانذار عند هجوم العدو فتتهيأ للدفاع
بأسرع ما يمكن وترمم ما يحتاج الى الترميم بترتيب ونظام فضلا على
ذلك فهذه العميان تسيطر على الملكة فتزيد عملها أو تنقص حسب
الحاجة بما تعطي أو تمنع من مفرزاتها اللعابية كما انها تعرف أن تقطع
الزائد عن عدد الجنود بحرمانه الغذاء فيموت ويصير طعاماً للباقين .
ولكن لمن تخضع العمال يا ترى ؟ انها قدمت على مذبح النوع كل
ما يميز الجنس وجادت بالعيون والاجنحة في سبيل الخير العـام
وحملت عبء الاعمال المختلفة من هندسة وبناء وزراعة وحصاد
وتجـارة وكيمياء وتربية ودفن وجعلت أجسامها مطبخاً للامة

،ولا تزال أسيرة الواجب تعيش على غير هدى في أعماقها الدامسة الا انها على ما يظهر لا تختلف عن الاخرين في الجهل وعدم التمييز

هل هناك سلسلة من أعمال السليقة أم هو الاتفاق والمصادفة كما يقولون؟ اذا كان الاول فلا يزيد الحالة وضوحاً ولا يكشف لنا منها افقاً جديداً واذا كان الثاني « فالصدفة » اذاً أعظم اله . . .

ان مثل هذه الطرق السياسية والاقتصادية المدهشة موجودة عند النملة والنحلة وهي في النملة من أغرب ما عرف . خذ مثلا النملة الصغيرة الصفراء فانها تقيم في أسرابها زرائبا لقطيع من دود النبات اسمه (Aphide) يفرز سائلا سكراً فتذهب في استحلابه كما تحتلب البقر والماعز . وغيرها يذهب غازياً ويرجع بالعبيد والاسرى ومنها ما يحفر أنفاقاً يبلغ طولها مئة متر ويفرشها بالاوراق المقصوصة ويجعلها مزدرعاً لفطر مخصوص لا يمكن استنباته في مكان آخر . وفي بعض جهات اوستراليا وافريقيا فئة من عمال النمل تتوفر على أمر واحد فلا تعود تترك عشها بل تتعلق بالسقف بارجلها ويصير بطنها المطاط المستدير المفعوح كالزق يخزن فيها العسل لايام الجوع

ولا حاجة للقول ان ما ذكرناه وغيره مما لم نذكر ليس من مخترعات الخيال بل من الحقائق التي كشف البحث الدقيق عنها القناع

— ٣ —

في كتابي « حيال النحل » ذكرت روح القفير ، وجعلتها الاصل في تلك الادارة الواسعة الحكيمة الا أن روح القفير كلمة تدل على حقيقه مجهولة ولا تفسر شيئاً

والآن اقدم للقارىء افتراضاً آخر وهو أن نحسب القفير والقرية سواء قرية النمل أو الارضة ذاتاً واحدة كالجسم ولكنها لاتزال مشتتة الخلايا أو انها صارت الى التشتيت، ذاتاً حية لم يتماسك جوهرها بعد أو لن يتماسك ، ذاتاً مختلفة الاعضاء ، خلاياها مستقلة في الظاهر ولكنها خاضعة لشرعة مركزية واحدة . أو ليس جسمنا مجموع ربوات من الخلايا الا ان خلايانا لا تستطيع الابتعاد عن عشها أو نواتها بل تبقى مقيدة حتى فناء هـذا العش أو النواة . وههنا بدا نظام القرية قاسياً مجرداً عن الرحمة فان نظام الجسم الانساني لا يختلف عنه في شيء ففي كليهما اشتراكية وتضحية ،

تضحية الافراد للمجموع وتفان في سبيل الصالح العام . في كليهما نظام واحد للدفاع واقتراس « الفاكوسيت » للخلايا الميتة والتي لا فائدة منها . في كليهما عمل واحد مجهول أعمى نحو غاية مجهوله ، في كليهما قساوة واحدة وتوزيع واحد لاعمال التغذية والتناسل والتنفس ودورة الدم وما شاكل . في كليهما تضامن ودعوة عند الخطر وتوازن واحد وشرطة واحدة . هكذا تتكاثر كريات الدم تكاثراً مدهشاً اذا حدث نزيف وهكذا تنوب الكليتان عن الكبد اذا أعياها العمل وتصحح القلب اذا اصيبت صماماته . كل هذا بدون أن يتداخل الادراك أو يؤخذ له رأي .

كل ما عرفناه ، والعهد به حديث ، هو ان للغدد الباطنيه وما تطلقه في الجسم من مادتها التي كانت مجهوله حتى اليوم أثراً كبيراً في وظائف الاعضاء . أما نظام هذه الغدد اما اختلاف نتائجها من انها في أحوال واحدة تخلع الصحة على هذا والمرض على ذلك فلم يتح لنا بعد التعليل عنه . عرفنا مثلا ان الغدة الدرقية تعدل وتخفف عمل النسيج الخلوي وان الغدة السحامية تنظم التنفس والحرارة وان الغدة الصنوبرية والتناسلية واخواتها توزع القوة على ملايين الحويصلات ولكنا لا نزال نجهل المصدر الذي يدير حركات هذه الغدد فما هو ياترى وعلام تختلف نتائجه فتعطى الواحد السعادة

وتلقي بالآخر في أنياب الشقاء والالم والموت . من المسئول عن هـذه الغدد والمطالب بنظامها اذا اختل وعملها اذا ضل ؟

فاذا كنا لا نعرف شيئاً من هـذا ونجهل كل الجهل من هو الآمر الناهي في هيكلنا البشري فكيف نستطيع خرق الحجاب المسدل على القفير أو القرية لنتعرف الى الحاكم فيها المدبر لامورها المنظم لشرائعها

ان قصارى ما وصلت اليه مداركنا اليوم هو ان دولة الخلايا المتحدة ، خلايا جسمنا ، لا تتأخر عند شعورها بالحاجة الى الاكل أو النوم والحركة والحرارة وما شاكل أن تقوم بما يلزم أو تأمر من يقوم به عنها وهذا هو ما تفعله الارَضة عند حاجتها الى الجند أو العمال أو غير ذلك . ولهذا لا أجد رأياً أقرب الى الصحة من اعتبار القرية جسماً واحداً لان الجسم الواحد أو الفرد كما يقول الدكتور « جاورسكي » لا يقوم بمجموع الاجزاء أو بوحدة أصلها أو باتصال مادتها بل بوحدة الغاية

وبعد هـذا كله فالقارىء حر ان يفسر حوادث الحيـاة كما يشاء فينسبها الى روح الوجود المنتشرة في كل مكان كما يقول بعض الفلاسفة ، أو الى نظام سابق مسنون على رأي « ليبنز » في شروحه المبهمة عن الاسباب الغائية التي تخضع لها الروح والاسباب المنتجـة التي يخضع لها البدن وكلها ضروب من الاحلام العبقرية

لا تستند الى سيء راهن ؟ أو الى الارادة حسب رأي شونهور ، أو الفكرة المـدبرة على زعم كلود برنارد ، أو الى العناية الالهيـة ، المحرك الاول ، علة العلل التي لا علة لها ، أو الى الاتفاق البسيط و « الصدفة » . كل هـذه الشروح والتفاسير المختلفة في الصور المتشابهة في الجوهر لا تدل الا على قصورنا وعلى أن مبدأ الحيـاة وطريقها وغايتها امور لا تزال بعيدة من الادراك وربما لا تقرب منه أبداً

أدب القرية

— ١ —

ان يكن نظام الاجتماع قاسياً حد القسوة في القفير وهو بلا ريب أشد وأقسى في قرية الارض فان النحلة على الرغم مما تعانيه من التضحية لآلهتها المجهولة وهى تقضي معظم عمرها في الهواء مغتسلة باشعة الشمس متلذذة باحلى ساعات الربيع والصيف والخريف. وهي طليقة العمل حرة التصرف تنتقل من زهرة الى زهرة كما شاءت وشاء الهوى لا رقيب ولا عـذول . أما في الجمهورية البرازية (١) فالتضحيـة كاملة على الاطلاق والمراقبـة مستمرة لا تنقطع والحرية لا أثر لها . ظلام دائم وضغط مستمر على تعاقب الايام والسنين ، والجميع عمي مستعبدون لا سبيل لاحد أن يفلت من أسره ليتنشق الهواء ويبصر النور الا من كتب له أن يذهب ضحية الجنون العظيم الذي سنته شرعة التناسل . وهكذا تجري

(١) نسبة الى البراز وبالافرنسية Republique Stereorale

أعمال الحياة على وتيرة واحدة من أولها الى آخرها فاذا احتيج الى
حلب الغذاء من مكان قصي تذهب الارَضة كما مر بنا في أسرابها
الطويلة تحت الثرى دون أن تجسر على الظهور ثم تأخذ في نقب
الشجرة أو الجسر أو الدعامة من الداخل دون أن تتعرض للقشرة
وللدهان فلا يحس الانسان شيء ولا يرى أحداً من الوف الاشباح
التي تتزاحم سراً في جدرانه ولا تفارقه الا بعد انتهاء العمل وحلول
الكارثة . وهذا الظلم الهائل لا مثيل له عند البشر لان ظلم الناس
فيه فائدة لبعض الناس واما ظلم الارَضة فلا يفيد أحداً بل هو عام
مجهول الاسم مستقل بذاته لا يدرك ولا ينال والاغرب انه لم
يخلق دفعة واحدة ولم يكن فلتة من الطبيعة بل تقلب في أطوار
مختلفة واتسع نطاقه تدريجاً فان الانواع التي تبدو لنا أرقى حضارة
من سواها هي اعرق في العبودية وأحق بالشفقة

إذن كلها تنهك الجسم ليل نهار في أعمال محدودة مختلفة متعبة
لا انقطاع لها ما خلا الجنود فانها تبقى ساهرة صابرة لا اشتراك لها
في حركة الحياة العمومية ، منتظرة في تكناتها المدلهمة ساعات الخطر
لتجود بحياتها . نظام اقسى مما نراه في أديرة الكرمليت والترابيب ،
لا يعطي راحة احداً حتى المرض لا يسمح به وكل وهن أو تعب
كان على صاحبه حكماً قاضياً بالموت . هنا جاورت الاشتراكية كل
حد حتى انتهت باعضائها الى التهام بعضها البعض وأكل الفضلات

والبرار غداؤها الوحيد . ولو أعطي للنحل أن يتصور الجحيم لما كان في نظره أشد هولا من هـذا لانه يجوز لـنا أن نعتقد ان النحلة لا تشعر بتعاسة حياتها ولا تعدم لذة الحبور عندما ترتوي من ندى الفجر وتعود ثملة من الزهر فتستقبل باكرام في قصرها العسلي العاطر . أما الارَضة اللاصقة بالتراب تدب دبيباً في ظلمة حياتُها القذر فمن أين لها الراحة أو السرور واية مكافأة تنتظرها أو ابتسامة تنسيها عملها الشاق وهل عاشت هذه الاحقاب الطوال فقط لتبقى كما هي أو بالاحرى كي لا تموت فتتكاثر بدون لذة وتخلد بلا أمل صورة من أحقر صور الوجود وأشقاها

من يدري الاسرار الروحانية أو الحيوية أو الاثيرية أو الـكهربائية التي تختبىء في هذه القوى ولا نصل الى حل طلاسمها ، والحق يقال ان الانسان كلما تقدم في ادراكه ادرك انه من أجهل المخلوقات واضيقها علماً

— ٢ —

على كل حال اذا بدا لنا في حياة الارَضة الاجتماعية أشياء كثيرة تدعو الى الاستهجان والنفور وتبعث على الاشمئزاز والتقزز فان لها من الصفات السامية ما يرفعها فوقنا بمراتب ولو كان لنا اخلاصها المطلق للخير العام وعندنا روح التضحية التي لها وفيها من التجرد من كل منفعة ذاتية ما فيها لكنا في صف الابطال والقديسين . ألا ترى ان النذور التي تقام في نظمنا الدينية البالغة منتهى الصرامة هي الفقر والطاعة والطهارة فايها من هذه الثلاثة لا تجده في القرية في اكمل مظاهره بل ان الطهارة بلغت فيها حد الخصاء الاختياري فمن هو الناسك المتعبد الذي يدفعه نسكه وتعبده أن يطلب من أتباعه البقاء في الظلمة الابدية وأن يقلعوا عيونهم ليعيشوا عمياناً ؟

يقول العلامة « فابر » ان الحشرة لا أدب لها وفي هذا القول من التسرع في الحكم ما لا يخفى . ما هو الادب ؟ هو كما عرفه « لتره »

مجموع المبادىء التي تصرف حركات الانسان الحرة . وهذا التعريف ينطبق كل الانطباق على جمهورية الارَض فان المبادىء التي تديرها هي أسمى وامتن نظاماً من أحسن اجتماع بشري ولا يمكن التلاعب بالالفاظ للقول بان حركات الارَض ليست حرة وانه لا يستطيع الخروج على نظامه الاعمى فان العامل الذي يرفض العمل أو الجندي الذي يهرب من القتال يجازى بالطرد أو على الاظهر يقتل ويؤكل أفليست هذه الحرية نظير حريتنا ؟

واذا كان كل ما شاهدناه في هذه الجمهورية الواسعة لا يكفي ليكون ادباً فما هو اذاً ؟ تذكر أيها القارىء تضحيــة الجنود التي تقاوم هجوم النمل بينما يأخذ العمال من خلفها بقفل الابواب فيسدوا عليها كل مرجع ويتركوها الى رحمة عدو لا يرحم . أليس هــذا أعظم من « الترموفيل » حيث كان باقياً للمحاربين بعض الامل[1] ؟ وما قولك بالنملة التي تسجن في علبة وتحرم من الاكل أشهراً فتأكل من لحمها ومادتها لتغذي أبناءها ؟ لماذا لا نرى عجباً في هذا ولا فضلا؟ ألأننا نحسبه عملا ميكانيكياً اعمى لا ادراك فيه ولا مهرب منه ؟

(١) مضيق مشهور في تساليا بين جبل أويتي وخليج مالياك سعى فيه ليونيداس على رأس ٣٠٠ من سبارتا الى ان يوقف جيش كسرى فكتب اليه هذا ان سلم سلاحك فاجابه تقدم وحده ولكن احد الخونة دل الفرس على طريق يتمكن به من الالتفاف بالجيل فلما رأى ليونيداس الخطر دعا أصحابه الى طعام بسيط قائلا هذا المساء سنتعشى عند بلوتون « ملك الجحيم واله الموتى »

بأي حق وما الذي عندنا من أنبائه ؟ فلو أن أحداً كان رقيباً علينا يدرسنا كما ندرس هـذه الحشرات فماذا يقول عن آدابنا وكيف يفسر هذا التناقض في سلوكنا والحماقة في تصرفنا والجنون المستحوذ علينا في ملاهينا ومخاصماتنا وحروبنا وفي أية ظلمة يكون تخبطه في حكمه علينا ؟

— ٣ —

ان سعادة الارَض هي في كونه اضطر الى محاربة عدو شديد أوفر ذكاء واقوى عدة وهو النملة . تلاقيا من اكثر من مليوني سنة ولا تزال الحرب بينهما سجالا ولولاها ربما عاش خاملا بلا همّ ولا نشاط لا ريب ان الصدمة الاولى كانت شديدة عليه فغيرت ما خط له في لوح القدر فعاف النور واعتاض منه بظلمة الثرى بعد أن أقام الحواجز والسدود وبنى المخازن والقلاع وزرع الحدائق ودبر الغذاء بكيميائه الحية وصنع السلاح ونظم الحامية واستوفى شروط الحرارة والهواء والرطوبة وتكاثر الى ما لا نهاية له ليستطيع مقاومة هـذا العدو . واضطر بوجه خاص ان يخضع ويحتمل الضغط ويتعلم النظام والتضحية اللذين هما الاصل في كل فضيلة وبالجملة ان يُخرج من شقاء لا نظير له ما شهدنا من عجائبه وآياته

ماذا كان يحل بالانسان لو أصابه ما أصاب الارَضة فلقي في

طريقه عدواً اهلا لمحاربته يساويه ذكاء ونظاماً وقسوة ؟ انه لم يجد في الواقع الا اعداء متفرقين لا ادراك لهم والعدو الوحيد القادر الذي لا يزال يناضله منذ آلاف من السنين هو الانسان نفسه فاهتدى بهذا النضال الى معرفة أشياء كثيرة الا ان العدو لم يكن غريباً عنه فلم يأته بشيء لم يكن عنده . قد يمكن ان يهبط علينا يوماً عدو آخر من حيث لا ندري من عالم النجوم او غيره فيحمل الينا فوائد جديدة اللهم اذا لم يفن بعضنا بعضاً قبل تلك الساعة

المقادير

— ١ —

من بواعث القلق أن تكون غريزة الاجتماع مدعاة للشقاء فكلما نفحت بها الطبيعة مخلوقاً عليه سمة الادراك نتوسيعها وتنسيقها الحياة الاجتماعية التي ترتكز على الاسرة وصلات الام بأولادها، لم يكن ذلك الا لتسوقه الى نظام أضيق وضغط أشد وظلم أقسى وتزيده هماً وارهاقاً كلما زاد توسعاً وارتقاء وتجعل حياته حياة صانع أو جندي أو محكوم عليه بأشق الاشغال فلا تدع له فرصة يتنفس بها الصعداء مستنفدة بلا رحمة قوى أرقائها حتى اللغوب والموت، متطلبة التضحية والشقاء من الجميع غير ناظرة الى منفعة أحد حتى تفضي به الى ضرب من القنوط العام تبدو أمارات إرمانه وتجدده وتكاثره على آفاق القرون

من قديم الحقب يصبو الارض الى مثـل أعلى هو اليوم على وشك الوصول اليه فماذا يحدث عنـدما يظفر به تمـام الظفر ؟

أيكون أسعد حالا ؟ أيخرج من سجنه المظلم ؟ لا أظن ذلك لانه كلما اتسعت حضارته عار في الارض وضيق على نفسه فيها فقد كان له أجنحة فعافها وعيون فأضاعها وميزات النسل فاستغنى عنها (ما خلا طائفة متأخرة كالكالوترم Calotermes) . على كل حال فهو لا يبلغ قمة المقدّر له حتى يصيبه ما قضت به سنة الدهر كلما استوفت الطبيعة مرادها من إحدى صور الحياة يكفي هبوط يسير في حرارة تلك الاصقاع الاستوائية ليعاجله الهلاك عن مدى حياته ولا يبقى منه غير الاحافير

وحينذاك ترجع الطبيعة الى العمل ثانية وتعيد كما أبدأت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا

مقام ولم يسمر بمكة سامر

وهكذا يتكرر جهدها عبثاً ويصبح تعبها سدى مرة أخرى ما لم تكن هناك أشياء ونتائج تتجمع في ناحية من هذا الكون لا علم لنا بها وما هذا بمستحيل

على انه اذا صح هذا ولم يكن مستحيلا فنحن لا نشعر بتأثيره . واذا نظرنا الى الآزال الغابرة وما أتيح للطبيعة أن تعمل فيها أيقنا ان حضارات كثيرة قد سبقت حضارتنا في هذا العالم أو في عوالم أخر فهل استفاد منها جدنا انسان الكهوف أم هل استفدنا نحن منها؟ ربما نعم ولكنها فائدة زهيدة جداً مدفونة في أعماق وجداننا

الباطن Subconscient الى حد يتعذر عنده الشعور بها

ثم انه من المسموح أن نفتكر انه لو كان أحد هـذه العوالم المستطيرة في الفضاء قد وصل فيما مضى من الادهار أو في الدهر العتيد [1] الى الغاية التي نسعى اليها لـكنا عرفنا ذلك فان سكانه لا تتأخر عن إنبائنا بل تجرب بكل ما لديها من درائع وخبرة أن تمد الينا يد المعونة وتنتشلنا من وهدة هذا الشقاء اللهم اذا لم تكن خلواً من كل رحمة وهـذا ما لا يحتمل وقوعه اذا اعتبرنا بالذكاء الذي يصل اليـه من كان في حالها من الارتقاء كنا عرفنا ذلك ولا سيما لان هـذه العوالم تكون قد تغلبت على المـادة فهي إذاً سابحة في آفاق روحانيـة لا تعرف المسافة والوقت . أو ليس من المعقول انه لو وجد في العالم ذكاء وصلاح وسعادة بالغة أقصى الدرجات لـكانت آثارها تدل عليها ونتائجها تسعى منتقلة من عالم الى عالم . فاذا كان مثل هـذا لم يحدث حتى اليوم فكيف نرجو حدوثه يوماً

ان أجمل الآداب البشرية مبنية كلهـا على فكرة الجهاد والالم في سبيل الكمال ولـكنها لا تقول لنا السبب الذي من أجله يرجع الانسان عودَه على بدئه فأين تذهب أعمالنا وفي أية هاوية بعيدة القرار يضيع كل ما سما فينا منذ الآزال البعيدة فـلا يبقى له

---

(١) العتيد الحاضر المهيأ

أثر ؟ علام هذا النزاع وهذه الآلام التي لم يكن من ورائها فائدة ولن يكون ، ولماذا لم تلبس « روح الوجود » كل شيء صورة كماله منذ البدء ؟ ألكي نستحق السعادة استحقاقاً ولكن ما فضل الذي يستطيع أن يجاهد ويتألم أكثر من أخيه ما دامت القوة الخارجة عنه هي التي ميزته بهذه المقدرة على الجهاد والالم ؟

لا ريب ان الجواب على هذه الاسئلة لا نجده في قرى الارض ولكن حسب الارضة أنها نبهتنا اليها

— ٢ —

ان حياة النمل والنحل والارض صغيرة في المسافة ولكن لا حد لها في الوقت وهي تمثل للانسان موجز حياته من خلال العصور ولهذا يجدر بنا أن نسبر غورها . ان خطها مرآة خطنا فهل نحس على الرغم من ملايين السنين وعلى الرغم من الفضائل والبطولة والتضحيات الكبيرة ؟ ربما أفلح في أن يدرأ عن نفسه بعض الاخطار ولكن هل كانت المكافأة على قدر التعب ، على كل فهو لا يزال عرضة لاقل تغيير في الظواهر الجويه ومناخ الاقليم

ما الغاية من اختبارات الطبيعة هذه ، لا نعلم ولا هي تعلم لانه لو كان لها غاية لعرفت أن تنالها فيما مضى من الزمن فنحن بين لانهايتين سابقة ولاحقة وما لم يدرك في الاولى لن يدرك في الثانية ومهما امتدت حركاتنا وطالت فاننا نبقى بين الماضي والمستقبل في نقطة واحدة من المسافة والوقت

من الامور الصبيانية ان نتساءل أين تذهب هذه العوالم والاشياء فهي لا تذهب الى مكان ما وقد وصلت حيث أرادت. وستبقى الحالة بعد الوف الوف من العصور كما هي اليوم وكما كانت من الوف الوف العصور بل كما كانت منذ البدء الذي لا وجود له وكما ستكون الى النهاية التي لا وجود لها أيضاً. ولا شيء ينقص أو يزيد في عالمي الروح والمادة وكل ما نستطيع اكتسابه في العلوم والآداب والاخلاق قد اكتسب بلا شك في أدهار سابقة ولا ينفع الحاضر المستقبل باكثر مما نفع الماضي الحاضر. انما تتغير بعض ذرات من جملة هذا الكل في السماء وعلى الارض وفي افكارنا فيبدل منها اجزاء اخر لا تلبث ان تأخذ صورة الاجزاء الذاهبة فيبقى الكل كما كان وكما هو

لماذا لم يبلغ كل شيء الكمال ما دام يسعى اليه وقد أتيح له الزمن الكافي ، إذن هناك سنة اقوى من كل شيء لم تسمح به أبداً واذا لم تسمح به في الماضي فلن تسمح به في المستقبل

نحن في الواقع اقصر من أن ندرك كنه الحوادث سواء كان ميدانها العالم الذي يحيط بنا او جسمنا الذي يتحرك فيه

— ٣ —

لنقل على سبيل التأسي ان الذكاء يعيدنا آخر الامر ان ندرك ان الاشياء لا تدرك ، ولننظر الى هذه الاشياء من أعماق الوهم البشري فربما كان هذا الوهم حقيقة أيضاً على كل حال فانه السراب الوحيد الذي لا يعز علينا مناله . ذلك لانه يوجد أبداً حقيقتان الواحدة سامية جداً بعيدة عن الانسانية مفعمة باليأس لا تأمر بغير الجمود والموت والثانية دونها في المقام ولكنها تضع على عيوننا كمامًا نستطيع السير الى الامام متلذذين بالوجود كأن الطريق التي نركبها ستقودنا الى مكان آخر غير القبر

ومن هذه الوجهة يصعب علينا انكارما في تجارب الطبيعة هذه من محاولة الوصول الى مثل أعلى وهذا المثل يظهر باجلى صوره في جمهورية الحشرات فان حياة النمل والنحل والارَض تدلنا وحدها على ذكاء ونظام سياسة واقتصاد ابتدأ في حالته الاولى من صلة

الام بالنين وارتقى شيئاً فشيئاً حتى احتار أطوار النشوء المختلفة التي نشاهدها بالتفصيل في سائر الأنواع وبلغ من الكمال العملي أي استحدام القوى وتوريع العمل والانتاج قمة هائلة لم نصل اليها نحن

وهي تكشف لنا أيضاً عن صورة جديدة « لروح الوحود » او القوة المدعة لا تبعت على الطمأنينة وهذه هي الفائدة الحقيقية من درس هذه الحشرات ولولاها لكان درسها عقيماً صبيانياً فلتكن عبرة لنا وقارعاً يحذرنا من نيات الطبيعة ومقاصدها نحونا ولا سيما لان العلم يدفعنا من حيث لا نشعر الى التقرب من هذه المقاصد والنيات التي نباهي باكتشافها ان ما يقوله العلم يمليه عليه الوحود او الطبيعة فلا صوت يسمع غير صوتها وهنا موضع القلق

أن ما يقوله العلم اليوم هو ان نرجع الى الطبيعة في كل شيء وعلى الخصوص في الاجتماع . وبديه أن تكون هذه أفكار الانسان وأقواله لانه وسط هذا القفر الذي يتعسف فيه ما له غير الطبيعة من هادٍ أو معلم أو دليل حتى في الساعة التي يعارض الطبيعة فيها او يثور عليها فهو يفعل ذلك بالهامها أيضاً ولا ندري في الواقع ما نعمل ولا اين نسير اذا عصيناها أو لم نصغ اليها

وقد وجد الارض في الحالة عينها.ولا ننس انه سبقنا بملايين من السنين فله ماض قديم جداً وخبرة لا تعد خبرتنا شيئاً بالقياس اليها . ولو أعطي له أن يحكم علينا لاسمانا أطفالا في الوجود . قد نعترض بأنه أقل ذكاء منا، ولماذا؟ ألانه لا يملك مراكب وسككاً حديدية وطيارات ومكاتب وأنواراً كهربائية تحقق لنا هذا الافتراض؟ ن الفرق بيننا وبينه انه وجه جهده العقلي الى طريق آخر كحكماء

المشرق فاذا لم يأخذ مثلنا سبيلا الى الارتقاء الميكانيكي واستثمار قوى الطبيعة فلانه لم يحتج الى ذلك ولان قواه العضلية تفوق قوانا بأضعاف فلم يضطر الى البحث عن ذرائع تساعدها او تنميها وربما كان له من الحواس ما لا ندركه وبه استغنى عن كثير من الوسائل التي لا غنى لنا عنها ان جميع مخترعاتنا ليست في الواقع الا بنت الحاجة نقصد به الى اصلاح ما يفسده الضعف والقصور فاذا وجدت مثلاً عالماً لا يعرف الامراض فانك لن تجد فيه أثراً لعلم فاق اليوم عندنا كل العلوم وهو الطب والجراحة

— ٥ —

ثم هل كان الذكاء البشري القالب الوحيد الذي تفرغ فيه قوى الوجود الروحية والعقلية وهل كانت أعظم وأعرب واعمل وأدق هذه القوى لا تظهر فينا الا بواسطه الذكاء الذي نعتبره تاج الارض والعلم، ان أهم شيء في حيا نا أي سرها العمق هو غريب عن الذكاء معاداً له وما الذكاء الا اسم نعطيه لاحدى القوى الروحانية التي لا نفقهها

انما نحن في اختلاف عقول مثلما نحن في اختلاف وجوه

وربما كان للذكاء كما للحياة صور متعددة وليس لنا ما يدل على أفضلية بعضها على بعض وما الانسان الا فقاعة عدم يريد أن يقيس بها العالم

وبعد هذا كله فاننا لا ندرك كل ما اخترع الارض لانه نقطع النظر عما ذكرنا من عمرانه ونظامه في الاقتصاد والاجتماع وتوزيع

العمل والتموين والكيمياء والصناعة وتوليد المــاء وتحويل الصور والاشكال فان هناك أشياء لم يمط عنها اللثام . لقد تقدمنا الارض في هذا الوجود بملايين من السنين فليس بعيد أن يكون اعترضه في طريقه من العقبات ما سيعترضنا يوماً فنحتاج مثله الى تدليله ، كذلك أن تكون تقلبات الجو والاقليم في الاعصار الجيولوجيــة أيام كان يقطن شمال أوربا كما دلت آثاره المكتشفه في انجلترا وألمانيا وسويسرا ، قد اضطرته الى المعيشة تحت الارض فأفضى به ذلك الى تضاؤل بصره وكفه عنــد السواد الاعظم منه . من يدري اذا كانت هذه الزوايا لا تنتظرنا في المستقبل البعيد عند ما يجبرنا البرد على الالتجاء الى الكهوف والغؤور في بطن الارض ، او اذا كنا نقوى عليها مثله . ثم اننا نجهل طريقة المعامله عند هذه الحشرات ولا نعرف كم اقتضى لها من الوقت والتجربة قبل الوصول الى هضم السليلوز أما تحولها العجيب الذي تستطيع به أن تخلق هــذا الشكل أو ذاك فهو فضلا عن غموضه يُعد خطوة واسعة في طريق الابتكار والابداع لم يتسنَّ بعد للانسان أن يخطوها . ألا ترى اننــا لا نستطيع تحديد الجنس وتكوين الجنين كما نشــاء بل نجهل حتى ساعة الولادة اذا كان ذكراً أو أنثى فلو كان لنــا علم الارضة لاستطعنا أن نوجد عند الحاجة والضرورة أبطالا وعمــالا

ومفكرين لا يكون من عندنا اليوم من أهل البطولة والعمل والتفكير بالقياس اليهم شيئاً مذكوراً

ما الذي يمنعنا من الوصول يوماً الى تصحيم الدماغ آلتنا الوحيدة للدفاع في هذا العالم كما وصل الارض الى تصحيم متناول جنوده ومبيض ملكاته ؟ وهل يتمثل للخاطر ما يستطاع عمله يومئذ فان رجلا يبلغ من الذكاء أضعاف أضعاف ما بلغه نيوتن وباسكال مثلا فهو يقطع من مسافة العلم في ساعات ما نحتاج نحن الى عصور لاجتيازه ولعله يصل الى كشف الحجاب عن أسرار هذا الكون فنفهم لماذا كل هذا الشقاء الذي يحيط بنا وهذه الآلام اللازمة لطلوع الموت

هذا الانسان الجديد قد يصل الى اكتشاف حياة اخرى ، تلك الحياة التي يجدنا سرابها منذ القدم وقد وعدت بها كل الاديان دون أن تؤيد بالبرهان وجودها . ومهما يكن دماغنا اليوم ضئيلا فانا نشعر أحياناً انا على صفة هاوية العلم البعيدة الغور وان دفعة صغيرة قد تكفي لتلقينا في عبابها ولعل هذا التضخم الدماغي يكون خشبة الخلاص في الاعصار الخليدية التي تتهدد البشر

على انه يحق لنا أن نفترض ان هذا الانسان وجد في سالف الادهار وانه كان أوفر ذكاء من انسان اليوم بما لا يقدر غير اننا نبحث عنه فلا نجد له أثراً

— ٦ —

لنعد الى الارضة . من يجسر على القول ان الخاصة التي نتكلم عنها لم تنلها اياها الطبيعة ، فالطبيعة هي الهادي الوحيد لكل مخلوق قال « ارست كاب » كل مخترعاتنا وادواتنا هي تقليد لعمل الطبيعة من غير أن نشعر ، فمصحاتنا منقولة عن مصحة القلب وآلة التصوير هي غرفة العين المظلمة والتلغراف جهازنا العصبي والاشعة المجهوله رؤية الاجسام من خلال الحجب كقراءة الكتاب دون أن نفض عنه الغلاف واللاسلكي مناجاة الارواح بواسطة تموجات غير منظورة وفي تحريك الاجسام بدون أن تمس (وهذا غير محقق) دلالة على ما يمكن عمله من تغيير شرائع الجاذبية والثقل والانتصار عليها

السليقة والذكاء

— ١ —

ان العلامة « فابر » الذي قضى العمر في درس السليقة والذكاء لا يعتقد بذكاء الحشرة وقد أيد بالبرهان والاختبار ان اكثر الحشرات تفساً وحكمة وصناعة وحساباً للمستقبل لا تعمل عن ادراك بدليل انك اذا فاجأتها في عملها وأتلفت عليها نظامه لا يؤثر ذلك فيها بل تظل ماضية فيه بحكم العادة وان يكن أصبح بلا جدوى وقد استنتج من ذلك ان الغريزة تعرف كل شيء ما دامت في الجادة المرسومة لها فاذا أزحتها عنها تحولت المعرفة الى جهل فهي مهبط الالهام العلمي السامي ومجتمع الاغلاط الفاحشة حسب الحالة التي يعمل فيها الحيوان من طبيعية أو عارضة

خذ مثلا الحشرة المقعِدة [1] فان لها من الدقة في العمل ما

---

(١) لم أجد كلمة احرى لتسمية ما يقال له بالافرنسية Sphex لان هذه الحشرة تجعل عدوها مقعداً

ثلا تراه عند اكبر جراح وأبرع مشرّح فتضرب بابرتها جرادة الكرم في ناحية الغدد من الصدر ولا تزال تضغط على الغدد الدماغية حتى تصاب الجرادة بضرب من الشلل دون أن تموت ، ثم تضع بيضها على صدر فريستها وتطمر هذه في حفرة تحت الارض وتحكم سدها حتى اذا تفقت البيضة وجد النقف غذاءه مهيأً حيًا طريا لا خطر منه فاذا فاجأت هذه الحشرة وهي آخذة بسد حفيرتها ونزعت صيدها منها فانها تعود بعد ذهاب الخطر وتفتش في مكانها فترى بلا شك ان الجرادة والبيضة غير موجودتين ولا يثنيها ذلك عن متابعة عملها وتكميله فتقفله بكل إحكام حفرة فارغة لا بيضة فيها ولا جرادة

كذلك النحلة من النوع البناء فانها تخزن العسل في خليـة وتقفلها بعد ان تضع فيها بيضة فاذا فتحت ثلمة في الخليه عند غياب النحلة وكانت لم تنتهِ بعد من بنائها فانها ترممها حالا عند عودتها . ولكن اذا فعلت ذلك بعد انتهائها من البناء وابتدائها بخزن العسل فلا تنتبه النحلة الى ما فعلت وتظل تقذف العسل في الخليـة المثقوبة فيدخل في ناحية ويخرج من ناحية اخرى . ومتى حسبت انها وضعت القدر الكافي لاملاء الخلية تلقي فوقه البيضة فتخرج

من الثقب دون أن تدري بل تقفل خليتها وهي راضية عن عملها مقتنعة به

ويرتأي « فابر » بعد هذه الاختبارات وكثير غيرها لا محل لذكرها هنا ان الحشرة تعرف أن تواجه العارض اذا لم يخرج عن دائرة عملها اما في غير هذه الحال فتضيع رشدها وتكمل عملها السابق المرسوم كآلة ميكانيكية وان يكن على غير طائل

مثل هذا يجري في أجسامنا وحياتنا الآلية فقد أظهر الطب الحديث ان في وظائف الغدد الداخلية والسموم والاجسام الغريبة التي تكوّن المناعة والاحساس للمرض وما شاكل كثيراً من هذه الاعمال الداله حيناً على الذكاء وحيناً على الحماقة والجنون . ناهيك مثلا بالحمى وهي كما لا يخفى رد فعل بل واسطة دفاع من نظام فريد ولكنها تتجاوز الحد وقبل أن نتمكن من تقييدها وكسر حدتها تكون قد فتكت بالجسم اكثر من الداء الذي خلقت لمحاربته . وربما كان أصعب الامراض وأشدها هولا أي السرطان وما يحدث فيه من تكاثر الخلايا بلا انتظام هو ايضاً من مظاهر الاخلاص الاعمى التي تقوم به العناصر الموكول اليها الدفاع عن الحياة

على ان ما ذكرناه عن الحشرة المقعدة والنحلة البانيه لا ينطبق على سائر الحشرات فلكل من هاتين خطة معينة تسير عليها

ولا شيء يحولها عن مجراها الطبيعي اما الحشرات الاجتماعية التي
ترتبط وظائفها بوظائف الوف غيرها فان لها من المفاجئات ما يسوقها
الى ويلات عديدة لولا ما تظهره من اللين والسياسة والكياسة
وهنا يتعذر الفصل بين ما يختص بالسليقة وما يختص بالذكاء ولاسيما
لان الحالين هما من أصل واحد وسع واحد وطبيعة واحدة

— ٢ —

على ان هذه المسائل لا تزال غامضة والتناقض بيناً في كل ما كتب فيها . هكذا نرى النحل يتخلص أحياناً بسهولة من قيود عاداته القديمة فيدرك فائدة أشعة الشمع التي يقيمها له الرجل وما يقتصده بها من الوقت والتعب والنفقات كما انه يتغلب على أخلاقه الوراثية فيستغني عن اختزان العسل واللقاح وهذا ما تراه عند نقله الى أوستراليا أو كاليفورنيا حيث يجد نفسه في صيف دائم ويدرك أنه لا يحرم أبداً من الازهار فيكتفي بكسب قوته اليومي وربما انقطع تماماً عن زيارة الزهر اذا وجد ما يعتاض عنه كما في مصانع السكر

ومن ناحية أخرى من منا لم ينتبه الى حماقة النملة عندما يجتمع عشر منها واكثر لنقل حبة لا يعجز عن جرها نملة أو نملتان . وأغرب ما ترى من هذه الحماقة في النملة الحاصدة فيما يكون جماعة منها على سنبلة تعمل في قطع القمح من أسفله تجد عاملة كبيرة

تحاول قطع الساق من تحت السنبلة جاهلة انها تقوم بعمل طويل متعب لا فائدة منه . وكثيراً ما تخزن في عشها من الحبوب ما يربو على القدر اللازم فادا جاء المطر فرخ الحب وكان اسانا واشياً عليها فيأتي الزارع ويهدم القرية . ولا يزال هذا العمل يتكرر من قديم الزمان دون أن تتعلم النملة منه وتتغير عاداتها

وهناك نملة افريقية مستطيلة الارجل تستطيع لعلوها عن التراب أن تدب في أشعه الشمس دون أن تتألم من حرارة الارض المحرقة وهي تمشى بسرعة عريبة فتقطع في الثانية ١٢ متراً وبما ان بصرها لا يمتد الى أبعد من ٦ سنتيمترات فهى كالعمياء لا تبصر شيئاً في سيرها السريع وهكذا تمر بقطع السكر التي تنشدها دون أن تشعر بها وترجع الى وكرها عير حاملة من دورتها الطويلة عير الخيبة . ومن ملايين من السنين لا يزال هذا النمل يجدد كل صيف رحلاته الطويلة هذه ولم يدرك بعد انها عقيمة

هل كان النمل أقل ذكاء من النحل ؟ لا شيء مما نعرفه عنه يثبت ذلك وربما كنا قاصرين عن فهم حاله لان درس القرية أصعب من درس القفير . واصعب منهما درس الارضة . ولا يخفى ما في هذا الدرس من الاهمية لأنه متى عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء « وبالروح المبدعة » سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التي تختفي فيها أسرار الحياة والموت

— ٣ —

ولكن قبل الوصول الى حل شاف ألا يجوز لنا أن ننسب غريزة الحشرات ولا سيما النمل والارَض والنحل الى الروح المشتركة الخالدة فقد قلت فيما مر ان هذه الشعوب هي كذات واحدة أو كائن حي مستقل اعضاؤه مؤلفة من خلايا كثيرة متفرقة في الظاهر مجتمعة في الواقع حول الشرعة المركزية . وهذا الخلود المشترك هو السبب الذي من أجله يموت المئات والالوف من الارَض دون أن يؤثر في الذات أو الجسم الواحد المستقل لان غيرها يقوم مقامها كما ان اندثار ألوف الخلايا فينا لا يغير حالة ما نعبر عنه بكلمة « انا » ولهذا تظل الارَضة عائشة كما هي منذ القدم دون أن يصيبها اختبار أو يحصل لها وجود ولا تتشتت تذكاراتها لان هناك ذاكرة واحدة للجميع . وهذا ما يفسر لك كيف ان ملكات النحل لا تنفك تبيض منذ ملايين من السنين ومن دون أن تزور

زهرة أو تجمع لقاحاً أو تمتص عسلا تستطيع ان تخرج عاملات تعرف ما جهلته امهاتها كل هذه العصور وللدقيقة الاولى من طيرانها تفهم كل أسرار الطريق وجمع العسل وتربية العـذارى وكيمياء القفير . تعرف ذلك لان الجسم التي هي احدى خلياته يعرف ذلك فتراها مبعثرة في الفضاء وهي متفرقة الشمل في الظاهر ولـكنها مربوطة بالوحدة المركزية . فهي كخلايا جسمنا تعوم في سائل إلا ان هذا السائل أوسع مدى من سائل الجسم البشري واكثر ليونة وخفة وروحانية

— ٤ —

هل يحتل الارض اما أنموذجاً للنظام الاجتماعي الآتي ؟ من يدري ما يخبئه لنا الغيب مما لا يمر له خيال في تصوراتنا فقد يكفي أحياناً شيء لا يذكر ليقلب نظام الادب ومقدرات الشعوب . ان غاية ما نصبو اليه اليوم هو حياة جمال ورخاء وسلام ويمن وقد أتى على الانسان ساعات من الدهر قارب بها هـذه الغاية في اثينا أو الهند أو بعض أدوار المسيحية . فمن يؤكد لنـا اليوم اذا كانت الانسانية تتمشى حقيقة في هذه الطريق لا في الطريق المعاكسة لها ؟

ان ما لا ريب فيه ان السعادة الـكاملة الثابتة لا نجدها إلا في حياة روحية بحتة فهل هذه الحياة ممكنة ؟ نظرياً . نعم أما عملا فمن المستحيل ذلك لاننا لا نرى من حولنا إلا المادة وسوى المـادة لا نشعر . ودماغنا نفسه مادة فكيف نرجو ان نفهم به غير المادة .

كلما حرب الواحد منا أن يفلت من قيود هذه المادة أصابه الدواح وهبط الى الحضيض

ان المادة عدو الانسان الوحيد وقد اتفقت الاديان على دلك سواء سمي هدا العدو شراً أم حطيئة ولهدا كانت حالة البشر محزنة على الارض لانه لا سبيل الى الخلاص من المادة . وكيف الخلاص وكل ما في العالم هو منهـا والقوة نفسها والحياة ان هما إلا صورة من صور المادة وشكل من أشكالها بل الجسم الجامد الذي لا حراك به أو المادة الصحمة الميتة فيها حياة اكثر روحانية من أفكارنا

تلك الحياة الهائلة الخالدة ، حياة الـكهارب التي لا تتعب متحركة كالسيارات حول نواتها المركزية .

كيفما أجلنـا الفكر نرى شيئاً وهـذا الشيء هو غير العدم فاما أن يصير « أنا » عظيماً الى حد أن ينسى معه دلك الحيوان الصغير الدي كان يقال له الانسان أو يبقى حقيراً خاملا على مدى العصور وهي لعنة لا يواريها أكبر عداب من جحيم المسيحيين

على كل حال يقول ابكتت الفيلسوف : لا يجب أن نحـاول تغيير طبيعة الاشياء فليس هـذا بمستطاع ولا بمجد وانكن على قبولنا بها لنتعلم أن نطبق تصرفاتنا على نواميسها » عشرون قرناً مرت على الانسان مند رنت في أدنه هده الـكلمات ولم تصل به بعد الى نتيجة ترضيه انتهى

تنبيه واعتذار

ان السرعة التي أنجزت بها هذا الكتاب، ليتسنى اصداره مع الهلال الاخير لهذا العام، منعتني من امرار النظر عليه فربما وقعت فيه أغلاط لا تخفى على القارئ، كما فاتني ذكر بعض الاسماء العربية لمسميات أعجميـة كالرواعي مثلا فقد وصفها اليـارحي لكلمة «فاكوسيت» أي الكريات البيضاء المفترسة وكالهوله بمعنى من يولد خارقًا للطبيعة Monstre وغير ذلك مما نعود اليه في الطبعة الثانية ان شاء الله

الدكتور فياض

الاسكندريه في ٢٩ يوليو سنه ١٩٢٧

فهرست